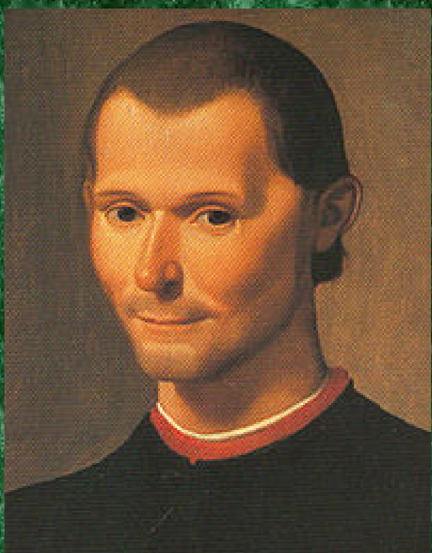
كتب غيرت مجرى العالم

كتاب الأمير

لمكيافيللي



ترجمة : أكرم مؤمن

مكتبة ابن سينا
للطبع والنشر والتوزيع
٧٦ شارع محمد فريد - النزهة - مصر الجديدة - القاهرة
☎ ٦٣٧٩٨٦٣ - ٦٣٨٩٣٧٢ ف: ٦٣٨٠٤٨٣

اسم الكتاب
كتاب الأمير لمكيافيللى

اسم المترجم
اكرم مؤمن

تصميم الغلاف
قدرى عبد ربه

رقم الإيداع
٢٠٠٤/١٨٧٧٨
977 - 270 - 707 - 7

طبع بمطابع العبور الحديثة بالقاهرة ت: ٦١٠١٠١٢ فاكس: ٦١٠١٥٩٩

Web site : www.ibnsina-eg.com E-mail : info@ibnsina-eg.com

كلمة المترجم

لم يتوقع نيقولا مكيافيللي أن كتابه الأمير الذي انتهى من كتابته قبـل وفاتـه بأربعة عشر عاماً سيصبح مرجعاً سياسياً مهماً لكثير من قادة العـالم عقـب الثـورة الصناعية. كما أنه لم يخيل إليه أن يصبح الكتاب ذا أهمية في عالم السياسية. فكل مـا كان يطمح إليه هو أن يقرأ الأمير هذا الكتاب ويعمل بما جاء به ويـستطيع توحيـد إيطاليا. لكن الكتاب أيضاً وفي نفس الوقت يعتبر عاراً يلاحق مؤلفه حتى بعد وفاتـه بعدة قرون.

ورغم محاولات الدفاع العديدة عن الكتاب إلا أ ا لم تفقده السمعة السيئة التي حاقت به وبمؤلفه. فقد وجد المؤلف ضالته في أمير حديث تولى ولاية موروثة عن آبائه، فكتب له هذا الكتاب ووضع فيه خلاصة فكره وتجاربه السياسية علها تفيد في تحقيـق هدفه المنشود وهو توحيد إيطاليا.

لكن هذا الناصح الأمين لم يخجل من ذكر نصائحه صراحةً ودون محاولة لتغطية ما فيها من معاني الخسة والانتهازية وعدم احترام حقوق الآخرين، بل واعتبار أن قتل الأبرياء شيء طبيعي من الممكن فعله من أجل الحفاظ على ملك مغتـصب، وذلـك عندما نصح الأمير بأن يبيد جميع أفراد الأسرة المالكة فيما يسقط بين يديه من ولايات وإلا أصبحوا خطراً عليه، وضرب على ذلك مثل بمن قتل كل أعيان وكبار بلده غدراً –ومن بينهم خاله الذي احتضنه ورباه بعد وفاة والده- بعدما عاد إليها حتى يطمـئن إلى أنه لن يبقى حوله سوى رجال جيشه المخلصين الولاء له فقط. كما أن مكيافيللي ينصح الأمير علانية بأن يجمع كل الصفات الحميدة التي يفتخر ا الرجال ويلتزم ـا أمام الناس، بل ويبذل كل ما في وسعه كي يشتهر ا، فيقول الناس عنه : إنه كـريم وصادق وشهم وشجاع وحافظ على العهد. لكنه يشدد على أهمية أن يستخدم الأمير

عكس كل هذه الصفات عند الحاجة إليها دون أي خجل من ذلك. فالمهم فقط هو ما يسعى إليه الأمير من شهرة طيبة تتحقق سواء التزم بهذه الصفات أم لا.

لذلك فقد ترددت قليلاً قبل الإقدام على ترجمة كتاب "الأمير" لنيقولا مكيافيللي. وذلك لأن اسم مكيافيللي في حد ذاته لا يرتبط بأي معنى طيب في ذهن القارئ العربي العادي، بل إن كثيراً من القراء العرب المسلمين لا يعرفون عنه سوى أنه صاحب عبارة "الغاية تبرر الوسيلة" وهي عبارة وردت في الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب، ومعناها واضح وصريح، أي الوصول إلى ما تريد بأي طريق حتى وإن كان طريقاً غير شريف. فهي عبارة تجرد معنى الانتهازية في أخس صورة.

وقد أثار كتاب مكيافيللي جدلاً كبيراً عندما نشر في أوروبا لأول مرة، فهو يتناول أخلاقيات السياسة وهو شيء لم يسبقه أحد إليه، إلا أن غالب النقاد في تلك الفترة أجمعوا على ما فيه من أخلاقيات شريرة، وقالوا إن الكتاب لا يناسب سوى الطغاة الأشرار من الحكام وكنتيجة لهذه الشهرة في عالم الشر، فإن كل القراء في أوروبا في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر يعرفون كتاب الأمير وصاحبه مكيافيللي.

وقد أكد المسرح العالمي على تلك المعاني الشريرة الموجودة في أفكار مكيافيللي، وخاصة في كتاب الأمير. ففي المسرح الإنجليزي يقول شكسبير على لسان إحدى شخصياته في مسرحية "زوجات وندسور المرحات" : "ماذا.. هل أنا مخادع .. هل أنا مكيافيللي؟" كما أن "مارلو" قد استخدم الشخصية غير الأخلاقية على طريقة مكيافيللي في "يهودي مالطا" (1589م) وهناك أمثلة أخرى عديدة.

ولم يقتصر الأمر على المسرح الأوروبي القديم والحديث بل امتد إلى المسرح العربي الحديث أيضاً، حيث ترددت العبارات التالية في كثير من المسرحيات العربية : "هذه مكيافيللية رخيصة" أو : "هذا هو مبدأ مكيافيللي الرخيص" وغيرها من العبارات التي لا تحمل أي معنى للشهامة، أو النبل، أو الصدق، أو الوفاء.

وعلى الرغم من أن فرنسيس بيكون (وهو معاصر لشكسبير) قد حاول توضيح أن مكيافيللي يتناول الأشخاص كما هم، وليس كما يجب أن يكونوا، فإن ذلك لم يجد نفعاً، ولم يحسن من سمعة مكيافيللي التي كانت موضع طعن وشبهات حتى أن اسمه قد أصبح مرادفاً للشر الذي لا ينافسه سوى شخصية الشيطان مفستوفاليس في مسرحية فاوست الشهيرة، والتي ترجمت للعديد من اللغات العالمية.

ومما ساعد على تفشي السمعة السيئة للكتاب وصاحبه أنه قد صدر قرار عام 1559م بإدراج جميع أعمال مكيافيللي في قامة الكتب الممنوع نشرها، كما أن كثير من الجبابرة والطغاة كانوا يحبون قراءة كتابه "الأمير" فيقال: إن "موسيليني" قد اختاره موضوعاً لرسالة الدكتوراة أيام دراسته. وكان "هتلر" يضع هذا الكتاب على مقربة من سريره، ويقرأ فيه كل ليلة قبل أن ينام. فلا غرابة إذن لو علمنا أن "ماكس ليرنو" قد قال في مقدمته لكتاب "أحاديث" إن "لينين وستالين" قد تتلمذا أيضاً على مكيافيللي.

لكني –وبعد دراسة شاملة للأمير، وقراءة غالب ما كتب من تحليلات عن هذا الكتاب وبعض ما صدر له من ترجمات للغة الإنجليزية- قررت بلا تردد ترجمة هذا الكتاب لأسباب عديدة. من هذه الأسباب أن الكتاب مليء بالأخلاقيات السياسية السائدة في ذلك العصر، بل والسائدة حتى عصرنا هذا، سواء كانت هذه الأخلاقيات حميدة أم بغيضة. وهذا يوضح لنا كيف تأثر قدامى الساسة والمحدثين منهم بما ورد بهذا الكتاب، وكيف استفادوا منه في تسيير أمور أعمالهم السياسية وغيرها.

ومن بين تلك الأسباب أيضاً هناك مواقف مذكورة بالكتاب، يمكن تطبيقها على ما يحدث في عالمنا الحالي سواء في الشرق أو الغرب، وذلك رغم أخلاقياتنا العربية السمحة التي تعارض مبدأ مكيافيللي على طول الخط وتقول بأن "الضرورات فقط هي التي تبيح المحظورات".

وقد وجدت أن الكتاب، وبشهادة كثير من المؤرخين، أول ما كتب في عالم السياسة الحديث، الذي تفرع، وتشعب، وتعدد في عصرنا الحالي وأصبح علوماً سياسية تدرس في جامعات العالم. وقد وضع الكتاب الأسس التي تمكن الحاكم من اختيار قادته ومستشاريه ونوابه وإن كان أيضاً يوجه الحاكم إلى أهمية البطش بمعارضيه والقضاء عليهم، فهو إذن يحتوي على الصالح والصالح من الأفكار، ولا بأس من ترجمته، لنعرف ما فيه من خير وإن كان قليلاً ونتجنب ما فيه من شر. فترجمته للعربية ستكون مفيدة للكثير من الباحثين والدارسين والطلاب.

والكتاب يشير إلى جزء هام من تاريخ إيطاليا وتاريخ العالم، لكنه لا يذكر تفاصيل بعض المواقع أو الأحداث التاريخية، والمعارك التي قد تكون مجهولة بالنسبة لقارئ الكتاب، بينما يتحدث عنها مكيافيللي وكأن الجميع يعلمها علم اليقين. فعلى سبيل المثال لا احصر، يشير مكيافيللي إلى قصة "سيدنا موسى" مع بني إسرائيل تلميحاً كمثال لوقوع المعجزات فيما مضى. كما أنه يشير للإسكندر والسلطان العثماني، وإلى المماليك في مصر وغيرهم من القادة القدامى والقادة المعاصرين له. وهذا قد يجعل القارئ يبحث عما تحدث عنه مكيافيللي من أحداث تاريخية، ومواقع حربية ومعارك ليقرأ عنها بالتفصيل فتكون هناك فائدة جديدة من وراء قراءة الكتاب.

كما أني رأيت ألا نخشى ترجمة كتاب لمكيافيللي لمجرد ما فيه من أفكار شريرة وقاسية وقد قرأنا من قبل كتباً مترجمة عن الماركسية والشيوعية وغيرها مما لا نؤمن به من أفكار تتعارض مع ديننا الإسلامي الحنيف، نقرأ عنها للإطلاع والمعرفة، وحتى نعي ما يحدث عندما تتسلل بعض مبادئها إلى شبابنا أو تدس له عن قصد. فليس جميع من بالمشرق والمغرب مؤمنين بضرورة الحوار الشريف مع الآخر، وليس جميع المثقفين في دول العالم المتقدم مستعدين لنقل ما يفيد للآخرين من أبناء الشعوب الأخرى في دول العالم الثالث بل إن الكثيرين منهم مستعدين لنقل ما يضر من مباد وأخلاقيات عن

قصد إلى أبناء هذا العالم الثالث المسكين حتى يظل في مرتبة تالية ولا يرقى إلى ما يعتبرونه حرياً بهم هم فقط.

ومن أجل كل ذلك استعنت بالله وشرعت في ترجمة هذا الكتاب الذي هو بين يديك الآن وكل ما أقصده هو العلم بما فيه وتناول موضوعاته مع عدم التعليق عليها كثيراً، وذلك لأن ما فيها من خير واضح جداً وإن كان قليلاً (مثل الحديث عن فنون القتال والتحصن من الأعداء)، وما فيه من شر هو كثير وضوحاً.

وأنا لا أجد غضاضة في أن تقرأ ما جاء بالكتاب، وإن ناقض بعض مبادئنا العربية السمحة الأصلية، بل إن ذلك مفيد لنا لكي نعرف كيف كان ساسة الغرب يفكرون في تلك الفترة وكيف تأثروا بهذه الأفكار حتى الآن. وحتى نعرف أيضاً أن بعض هذه الأفكار قد انتقل إلى ثقافتنا العربية، وطبقها بعض الحكام كما يمكننا أن نقارن بين ما ينصح به مكيافيللي أميره المحبوب وبين ما يحدث في بعض أركان عالمنا اليوم ولن يكون صعباً علينا أن نجد بعض الطغاة يعملون بما جاء به، ويستفيدون منه في البطش بالضعفاء المسالمين وفي الاستيلاء على ممتلكات الآخرين سواء كانت أراضي أو ممتلكات، بل وسنجد بصمات مكيافيللي أيضاً في طرقة قيام بعض الحروب العدوانية والإبادة الجماعية لبعض الطوائف وغيرها من أمثلة كثيرة.

وخلاصة القول هي أنني لم أقصد من وراء هذه الترجمة إلا المصلحة العامة، وأشهد الله على ذلك. فإذا وافقني القارئ على ذلك، وشعر انه قد استفاد مما قرأ، فإني أحمد الله على ذلك. ومن يرى غير ذلك فحسبي أنني اجتهدت ولم أقصد إلا الخير لقاري اللغة العربية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

أكرم مؤمن

مقدمة

لم يكن نيقولا مكيافيللي مجرد كاتب أو فيلسوف أو صاحب نظرية، بـل إنـه كان مشتركاً بقوة في الحياة السياسية المضطربة وغير المستقرة التي مرت بهـا مدينـة "فلورنسا" في الفترة التي عاش فيها.

ولد نيقولا مكيافيللي عام 1469م في أسرة عريقة، وكان "المديـشيون" قـد أقاموا حكماً استبدادياً، لكنه حافظ على الأنظمة الجمهورية القديمة، في حين سـيطروا بشدة على زمام الحكم الحقيقي. ولم تكن أسرة مكيافيللي موالية لأسـرة "ميديـشي" وكان والد نيقولا مكيافيللي محامياً مشهوراً، وهو من كبار الداعين إلى الجمهورية أمـا عن حياة مكيافيللي كشاب، فإن المتوفر عنها من معلومات قليل جداً. على أنـه مـن المفترض أنه قد تثقف ثقافة أبناء الطبقة المتوسطة المعتادة في عـصره فقـرأ في تـاريخ الرومان والترجمات اللاتينية لمختلف أمهات الكتب الإغريقية القديمة.

شب مكيافيللي في عهد أمير مديشي أطلق عليه أهل "فلورنسا" اسم "لـورنزو العظيم". وقد اعتبر عهده عصراً ذهبياً للنهضة الإيطالية. كان "لورنزو" أديباً وشاعراً مفطوراً، فاهتم بالأدباء والفنانين وأهل العلم. لكنه مات عام 1492م، واضطر خلفه "بييرو" إلى الخروج إلى المنفى بعد عامين بعدما تعرضت المدينة لغزو جديد على يـدي "شارل الثامن" ملك فرنسا. وقد ظهر راهب دومنيكاني اسمه "سافونارولا"، وتمكن من إصلاح الجمهورية، ونجح في إقامة حكومة دينية ما لبثت أن انهارت، وأعدم الراهـب وأحرقت جثته في عام 1498م. وبعد بضعة أشهر انتخـب مكيـافيللي سـكرتيراً للمستشارية الثانية لجمهورية "فلورنسا" وهي تـشرف علـى الـشئون الخارجيـة والعسكرية. وقد استمر "مكيافيللي" في الحكم ثلاثة عشر عاماً. ثم حدث ما لم يكـن متوقعاً. حيث جاء الجيش الفرنسي مرة أخرى إلى "فلورنـسا"، فاضـطر أهلـها إلى استدعاء أسرة مديشي، وبالتالي خرج "مكيافيللي" منفياً من مدينته.

اعتمد "مكيافيللي" أثناء حياته في منفاه الريفي على دخل بسيط من ممتلكاته التي توجد في بعض الضواحي. وكان يستيقظ مبكراً ويخرج إلى الغابة يتحدث للحطابين ويتبادل معهم الأقاويل والشائعات ثم يذهب إلى أحد التلال وحيداً، وهناك يقرأ "لدنتي أو شيراك أو تبيولوس أو أفيد". وبعد أن يتناول غداءً خفيفاً، يمضي إلى الحانة فيتحدث مع الطحان والقصاب وبعض البناءين، ويقضي معهم طيلة فترة الظهيرة يلعبون الورق والنرد ويتشاجرون على دراهم معدودة.

وعندما يأتي المساء يعود للمنزل ويغير ثيابه الريفية التي عادة ما تكون قد أصابتها الأوساخ والقاذورات أثناء جولته. ويرتدي ملابس البلاط والتشريفات لكي يكون في صحبة من أحبهم ويدخل إلى مكتبته الخاصة. كان يعتبر ذلك هو حياته الفعلية وكان خلال ذلك الوقت يدون ملاحظات في كتاب صغير أسماه "الأمير".

اعتزم "مكيافيللي" بعد ذلك أن يهدي كتابه "الأمير" إلى أحد أفراد أسرة ميديشي آملاً أن ينعموا عليه بمنصب جديد فيعود إلى حياة الخدمة العامة. وقد كتب بالفعل إهداء عنونه:

من نيقولا مكيافيللي

إلى لورنزو، الابن العظيم لبيرو دي ميديشي

وهناك شك في أن يكون الكتاب قد قدم فعلاً إلى "لورنزو" قبل وفاته في عام 1519م. ولكن من المؤكد أن هذا الكتاب قد وزع بشكل ملحوظ وطبع مرات عديدة، لكنه لم يطبع إلا بعد خمس سنوات من وفاة "مكيافيللي" أي في عام 1532م.

كُرم مكيافيللي في أواخر حياته بفضل جهود بعض أصدقائه، وذلك بأن أوفد في بعض البعثات غير ذات الشأن الكبير. كما أن الكاردينال دي مديشي (الذي أصبح البابا كليمنت فيما بعد) قد أوكل إليه بكتابة "تاريخ فلورنسا" وخصص له راتباً سنوياً

متواضعاً. وفي تلك الأثناء ازدادت مشكلات إيطاليا وتعقد ما تعاني منه من مشاحنات وخصومات. كل ذلك ساعد على شقاء مكيافيللي وتعاسته. فقد بدأ "لوثر" حركة الإصلاح الديني وتنافس "شارل الخامس" إمبراطور ألمانيا مع "فرنسوا الأول" ملك فرنسا من أجل السيطرة على إيطاليا، مما ألحق بروما الكثير من الخراب والتدمير وأدى إلى طرد عائلة مديشي مرة أخرى من فلورنسا.

وقد أعيدت طباعة كتاب "الأمير" عشرين مرة خلال عشرين عاماً. وإذا كان هناك بطل لهذا الكتاب فهو قيصر "بورجيا" الذي يخصص الفصل السابع من الكتاب لسرد أعماله ومآثره وصفاته والثناء عليه وإطرائه. وقد أخطأ مكيافيللي خطأ كبير عندما اختاره بطلاً لكتابه. فقد اقترف هذا البطل جرائم كثيرة ليصل إلى السلطة، كما ارتكب جرائم أخرى بصورة عارضة وقد ساهم ذلك الاختيار الخاطئ في تعميق اكتساب مكيافيللي للشهرة السيئة بعد وفاته، وعندما نشر الكتاب.

وقد أصبح هذا الكتاب الصغير منذ ظهوره في القرن السادس عشر مثار جدال كبير. كما أصبح مادة ضرورية لدراسة علم السياسة في عصر النهضة وعلى الرغم من كل ذلك استمر الجدال الحاد، والخلاف الكبير حول الكتاب. وهو على الرغم من اشتماله على عدد كبير من المبادئ والمفاهيم السياسية الناضجة التي اعتنقها مكيافيللي، إلا أنه لا يشمل كل آرائه السياسية.

ومذ ظهور الكتاب في طبعاته الأولى والخلاف يدور حول ما فيه من مضامين أخلاقية. وقد تطور هذا الخلاف إلى ما هو أبعد من مجرد تناول أغراضه العلمية وعلاقته بالمستقبل السياسي لعائلة مديشي. وقد اعتبره علماء الأخلاق وخاصة في بريطانيا وفرنسا كتاباً مناسباً فقط للطغاة الأشرار.

وكنتيجة لهذه السمعة السيئة التي لحقت بالكتاب، أصبح كتاب "الأمير" معروفاً للقراء الأوروبيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر وكثرت الإشارة إليه

في الأدب المسرحي في تلك الفترة. بل إن شخصية مكيافيللي نفسها قد استخدمت في بعض الأعمال المسرحية كشخصية شريرة بما يتناسب مع هذه السمعة.

إلا أن تناول مكيافيللي لتضارب المصالح بين العامة والحكام، كان موفقاً للغاية ويعتبر إنجازاً حقيقياً، وهذا تضارب يحدث عادة بغض النظر عمن هم أطرافه أو عن الفترة الزمنية التي يحدث فيها هذا التضارب، فالتاريخ يعيد نفسه.

ويعتبر مكيافيللي مسئولاً ولو جزئياً عن الجدل الذي ثار حول كتابه "الأمير" عقب طباعته. فهو لم يحاول تنظيم أفكاره ولا تفسير مصطلحاته التقليدية كما أنه أخفق أيضاً في توضيح العلاقة بين الأمير الجديد الذي سيصلح الهيئات الفاسدة وبين النظام الجمهوري الذي كان هو من الدعاة إليه. كما أنه قضى طوال حياته مخلصاً لهذا النظام ومنادياً به، ومدافعاً عنه.

وعلى كل حال فإن الترجمة التالية للكتاب ستوضح للقارئ كل أفكار مكيافيللي الواردة في هذا الكتاب، وسواء كانت تلك الأفكار أفكاراً طيبة أو خبيثة، فذلك واضح وضوح الشمس. ولا يحتاج إلى تعليق في أي موضع من الكتاب. ويمكننا أيضاً الاستفادة مما في الكتاب من خير وإن قل وتوارى بين طيات ما هو خبيث. كما يمكننا أيضاً تجنب ما في الكتاب من شر واضح. ويستطيع القارئ بنفسه تكوين فكرة صائبة عن الكتاب وعن مؤلفه. فالمؤلف لم يجهد نفسه بتزيين أفكاره لتبدو طيبة ورائعة من الخارج فقط،وقد ذكر ذلك في الإهداء الذي صدر به كتابه. ولكنه كان مباشراً وصريحاً في كل ما كتب في هذا الكتاب. وأتمنى للقارئ العربي أن يستمتع بقراءة هذا الكتاب ويقارن ما قرأه فيه بما يحدث في كثير من بقاع الأرض في عالم اليوم.

المترجم

الناشر: مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع – ترجمة أكرم مؤمن - طباعة: علي محمد المسلمي- البريد الالكتروني: ali_hantool@hotmail.com

نيقولا مكيافيللي في سطور



نيقولا مكيافيللي (1469 : 1527)

بيئته ونشأته

ولد نيقولا مكيافيللي بفلورنسا الإيطالية عام 1469 ، حيث كانت إيطاليا وقتذاك مقسمة إلي خمس دويلات من ضمنها فلورنسا. وقد عني مكيافيللي منذ نعومة أظفاره بقراءة التاريخ حيث كان يجيد اللغة اللاتينية . وفي ظل أجواء سياسية فاسـدة عـاش مكيافيللي حياته ، حيث حالة من الحرب الدائمة بين الإمارات الإيطالية تقوم عليهـا عصابات من المرتزقة المأجورة التي لا تدين بالولاء إلا للمال ، كما سادت الإمـارات المؤامرات والدسائس ، وانتشر الفساد الأخلاقي ، بحيث أصبح الإيمان والصدق والخير مجرد وساوس صبيانية لا يؤمن بها من يرى نفسه مستنيرا من البشر ، وأصبحت القوة الحيلة والخديعة هي مفاتيح النجاح ، غير أن هذه الحقبة كانت في ذات الوقت بداية ما يعرف بعصر النهضة في أوربا حيث بدأ العقل الأوربي يدير ظهره لمملكـة الـسماء و يعطي وجهه لمملكة الأرض فيفصل بين الدين (الكنيسة) والدولة (فكرة العلمانيـة) الأمر الذي أسهم دون شك في استشراء الانهيار الأخلاقي ، كما بدأ عصر الكشوفات الجغرافية كالأمريكتين ، كما اخترعت الطباعة ''

الناشر: مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع – ترجمة أكرم مؤمن - طباعة: علي محمد المسلمي- البريد الالكتروني: ali_hantool@hotmail.com

وقد عمل مكيافيللي في شبابه أمينا لهيئة العشرة للحرية والسلام التي تمثلت وظيفتها في الاتصال بممثلي فلورنسا الدبلوماسيين في الخارج ، وقد هيأت هذه الوظيفة له أن يزور دولا أوربية موحدة عديدة حال إسبانيا وفرنسا وإنجلترا ، وأصبح حلم حياته أن يرى بلاده إيطاليا وقد توحدت في دولة واحدة. غير أنه بحلول عام 1512 وصلت إلى الحكم في فلورنسا أسرة من الصيارفة هي أسرة المديتشي بعد أن أطاحت بالجمهوريين ، وسرعان ما ألغت الحكومة الجديدة هيئة العشرة للحرية والسلام ففقد مكيافيللي وظيفته ، وجلس في بيته الريفي حزينا ، لكي يؤلف كتابه الشهير في عالم فن السياسة والحكم ألا وهو كتاب الأمير ، وهو الكتاب الذي تضمن مجموعة من قواعد فن الحكم والسياسة قدمها مكيافيللي للأمير الجديد على هيئة نصائح ، نصحه بالتزامها حتى يدوم سلطانه ويرسخ حكمه وتتوطد أركان عرشه ، ويكون قادرا على تحقيق حلم الإيطاليين في الوحدة . وهي نصائح كلها قامت على الفصل التام بين السياسة والأخلاق.

منهجه

هو المنهج الاختباري الصرف القائم على ملاحظة الواقع ، بهدف تقديم صورة للواقع كما هو دون تفسير أو تعميم ، حيث كل ما قام به مكيافيللي كما قلنا هو تقديم مجموعة من قواعد العمل السياسي المصورة من الواقع ، دونما تدخل من جانبه بالتفسير أو التعميم ، وبذلك فهو يعتبر رائدا لفن السياسية لا علم السياسة .

فكره السياسي

قدم مكيافيللي للأمير مجموعة من النصائح تتعلق بالسياسة الداخلية (أي سياسة الأمير لرعاياه) ، وأخرى تتعلق بالسياسة الخارجية (أي علاقة الأمير بأمراء الدول الأخرى) ، وهي كلها قائمة على الفصل بين السياسة والأخلاق ، ويرى مكيافيللي أن اتباع هذه

النصائح (أو قواعد العمل السياسي) من شأنه أن يديم حكم الأمير ويرسخ سـلطانه، ويوطد أركان عرشه ويجعله قادرا على توحيد إيطاليا ، حيث يبـدأ كلامـه للأمـير مذكرا إياه بأن جموع الإيطاليين تتطلع إلي بيته كي يجمع شتاتهم في دولة واحدة .

السياسة الداخلية للأمير

نصحه مكيافيللي ألا يعبأ بالفضائل بل وأن يلجأ إلي الرذائل إن كـان ذلـك يحقـق مصلحته ، فلا يجب على الأمير أن يكون كريما لأن الكرم يؤدي إلي الفقـر وهـو إن افتقر سيخسر هيبته لدى رعاياه ، وعليه أن لا يكون طيبا لأن ذلك يثير روح الثـورة عليه في نفوس رعاياه ، أما القسوة فتقيم النظام وتمنع الفوضى وتحقق الوحدة وتقضي على الفتنة وهي في المهد ، كما أن رضا الرعايا متغير فلا تعتمد في استمرار حكمـك على رضاهم ، بل اعتمد على قوتك فهي إن دامـت سـيدوم حكمـك. ويـضيف مكيافيللي : أنا لا ألوم الحاكم الروماني روميلوس الذي قتل أخاه وشريكه في الحكـم لكي ينفرد بالسلطة ويوطد سلطانه ، ولا ألوم الروماني الآخر بروتس الذي حكم على أولاده الخمسة بالموت لكي يستمر عرشه ، فإذا كانت الواقعة (أي القتل) تتهمه فـإن الغاية النبيلة (أي دوام سلطانه) تبرؤه. ويضيف ربما يكون هذا الكلام ليس طيبا لو أن الناس كانوا طيبا لكن الواقع أن الأصل في بني البشر أنهم كذابون منافقون غشاشون جشعون نهمون شريرون مراءون لا يتطلعون إلا إلى ما ليس في أيديهم ، كما أنهم ربما يسامحونك إن قتلت أباهم لكنهم أبدا لن يسامحوك إن سلبت أموالهم.

السياسة الخارجية للأمير

أما بصدد السياسة الخارجية أي علاقة الأمير بأمراء الدول الأخرى فقد بدأ بوصـف العلاقات الدولية وكأنها غابة ، ونصحه بأن يجمع بين أسـلوب الإنـسان وأسـلوب الحيوان ، فإن اختار أسلوب الحيوان فعليه أن يكون ثعلبا وأسدا في ذات الوقت ، أي

يتبع أسلوب الثعلب القائم على الحيلة والمكر والخداع والمراوغة و النفاق والريـاء ، وأسلوب الأسد القائم على القوة والعنف والبطش. (ذكاء الثعلب وقـوة الأسـد). فبالنسبة لأسلوب الثعلب على الأمير أن لا يفي بالعهود التي يقطعها على نفسه للأمراء الآخرين إلا إذا كان في الوفاء بالعهد مصلحة له ،

وعلى الأمير أن يتزين أما العالم الخارجي بحلل زائفة من الصدق والـسلام والعـدل والوفاء (ذئب في جلد شاة) ، وأن يظهر أمراء الدول الأخرى بأ م هـم الكـاذبون وخالفوا العهود ،إن الأمراء الذين أجادوا أساليب الثعالب وأفلحوا فيها فعرفوا كيف يحيكون الغش والخداع كان التوفيق حليفهم الدائم .

كذلك على الأمير أن يكون أسدا فيبني جيشه النظامي القوي الذي يدين بالولاء له ، فلا يجب أن يعتمد الحاكم على المرتزقة الأوغاد الذين لا يدينون بالولاء إلا للمـال ، القوة ثم القوة فإن الأمير الذي لا يهتم ببناء قوته (جيشه) كمن يركض إلى هلاكـه ، وويل للأمراء م وعي السلاح.

إذن علي الأمير أن يكون ثعلبا وأسدا في ذات الوقت لأنه إن كان مجرد ثعلب عجـز عن التعامل مع الذئاب والغابة الدولية مليئة بالذئاب ، وإن كان مجرد أسد عجـز أن يتبين ما ينصب له من فخاخ والغابة الدولية مليئة بالفخاخ.

عليك أن تبدأ بأسلوب الثعلب فإن لم يفلح أسلوب الثعلب في خطف عنقود العنـب فليسمع زئير الأسد (أي إن لم تجد الدبلوماسية فلتدق طبول الحرب).

تقويم فكر مكيافيللي

اختلف المفكرون والساسة ورجال الدين حول أخلاقية هذا الفكر ، حيث مجده البعض على النحو التالي :

_ كتب أحد الأمراء الإيطاليين على نصب تذكاري أقامه على قبر مكيـافيللي (نم في سلام لا كلمات ترقى إلي شرف هذا الرجل).

_ المفكر الإنجليزي فرانسيس بيكون : كم نحن مدينون لهذا الرجل ، فهو الذي أرانا حقيقة عالم السياسة ،إذ علمنا الفارق بين براءة الحمامة ورياء الثعبان على نعومة ملمس كليهما.

_ نابليون الثالث كان لا يقرأ ليلة الحرب إلا كتاب واحد هو كتاب الأمير.

في المقابل اعتبرت الكنيسة أن مكيافيللي هو شيطان رهيب هبط على الإنسانية فارا من الجحيم ، وأن كتابه الأمير هو كتاب أودعته يد الشيطان.

1469	مولد نيقولا مكيافيللي في فلورنسا.
1498	اختير مكيافيللي سكرتيراً للمستشارية الثانية لجمهورية فلورنسا وهي تشرفعلى الشئون الخارجية والعسكرية.
1500	انتهى مكيافيللي من أولى بعثاته الدبلوماسية إلى فرنسا حيث قابل الملك لويس الثاني عشر.
1502/3	انتهى مكيافيللي من بعثته الدبلوماسية التي زار خلالها قيصر "بورجيا" والتي شهد خلالها سقوط بورجيا من السلطة عقب وفاة والده البابا الإسكندر السادس.
1504	يعود مكيافيللي إلى فرنسا مرة أخرى.
1506	أرل مكيافيللي في بعثة دبلوماسية إلى البابا جوليوس الثاني.
1507/8	قام مكيافيللي بأولى بعثاته إلى الإمبراطور مكسيميلان.
1512	تمت الإطاحة بجمهورية سودريني وعادت أسرة مديتشي إلى الحكم في فلورنسا.
1513	نجا مكيافيللي بأعجوبة من عقوبة قاسية وطرد من عمله، فلجأ إلى مقره الريفي في سانت أندريا حيث بدأ كتابه "أحاديث" وانتهى من كتابة "الأمير".

1513/17 انتهى مكيافيللي من كتاب "أحاديث".

1515/16 انتهى مكيافيللي من كتاب "فن الحرب".

1518 ألف مكيافيللي أكبر أعماله الأدبية "جذور تفاح الجن[1]".

1519 ظهرت أولى طبعات "جذور تفاح الجن".

1520 كلفت جامعة "فلورنسا" مكيافيللي بكتابة تاريخ "فلورنسا".

1521 طبع كتاب "فن الحرب" وهو الكتاب الوحيد الذي طُبع من أعمال مكيافيللي السياسية أثناء حياته.

1525 ربما يكون مكيافيللي قد ألف كتاب "حوار حول اللغة" فهناك جدال حول اسم المؤلف.

1526 قُدم كتاب "تاريخ فلورنسا" إلى البابا "كليمنت السابع".

1527 مات مكيافيللي ودفن في سانتا كروس في فلورنسا.

1531 نشر كتاب "أحاديث".

1532 نشر كتاب "الأمير".

1559 أدرجت أعمال مكيافيللي في قائمة الكتب الممنوعة وقررت محاكم التفتيش إحراق جميع كتبه.

1576 كتب أحد الفرنسيين البروتستانت رداً عنيفاً على كتاب "الأمير". وقد انتشر هذا الكتاب بسرعة وترجم إلى الإنجليزية.

1640 ظهرت أول ترجمة إنجليزية لكتاب "الأمير" وترجمة إدوارد دايسرز".

[1] نبات ينمو في جنوب أوروبا وكان يعتقد في السابق أن له قوى سحرية بسبب جذوره التي تشبه جسم الإنسان.

من نيقولا مكيافيللي
إلى لورنزو، الابن العظيم لبيرو دي ميديشي

من المعروف أن أولئك الذين يسعون على نيل رضاء أحد الأمراء يجتهدون في تقديم الهدايا الثمينة ذات القيمة الغالية إليه. أو أنهم يهدونه أشياء يعلمون أنها تدخل البهجة والسرور إلى نفسه ويسعد بها، ويحب رؤيتها. وعلى هذا الأساس نجد أن غالب الأمراء يقبلون هدايا تتمثل في جياد أصيلة، أو أسلحة ثمينة، أو ثياب موشاة بالذهب أو الأحجار الكريمة، وما شابهها من تحف تليق بمكانتكم العظيمة.

ولكنني على أي حال أود أن أهدي سموكم الكريم شيئاً متواضعاً يدل على إخلاصي لكم. ولم أجد فيما أملك ما هو أغلى من معرفتي بأعمال ومنجزات عظماء الرجال. وهي معرفة اكتسبتها من خلال تجربة طويلة مررت بها وقد صاحبها العديد من الأحداث إضافة على ما درسته حول ما حدث في الماضي.

وبعد تفكير عميق وبذل الكثير من الجهد في دراسة وتأمل منجزات العظماء، أهدي سموكم اليوم ما توصلت إليه من نتائج، وقد وضعتها في هذا الكتاب الصغير.

ورغم أنني أعتبر أن هذا الكتاب المتواضع قد لا يرقى لقبول سموكم، إلا أنني واثق من عطف سموكم وقبولكم له. فسموكم تعلمون أنني غير قادر على إهدائكم ما هو أعظم، أو أكثر قيمة من هذا الكتاب. فهو يمكن سموكم من التعرف في وقت قصير على كل ما اكتسبته طوال حياتي، وما تحملت من أجله الكثير من الأخطار والفقر طوال سنوات عمري الطويل. وأنا لم أتعمد بأي حال أن أجمل كتابي هذا بالمحسنات والكلمات المؤثرة المقنعة، وهو أمر يتبعه كثير من الكتاب. كما أنني لا أعتقد أنه من غير اللائق أن يتجرأ رجل بسيط من عامة الشعب مثلي على مناقشة الأمراء وتوجيه الحكومات. فمصوري المناظر الطبيعية ينزلون إلى الوديان ليتمكنوا من رسم الجبال. ثم إنهم يصعدون إلى أماكن مرتفعة حتى يتمكنوا من رؤية السهول والوديان. ولذلك فمن

الناشر: مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع – ترجمة أكرم مؤمن - طباعة: علي محمد المسلمي- البريد الالكتروني: ali_hantool@hotmail.com

الضروري أن تكون أميراً حتى تعرف طبيعة شعبك، كما أنه يجب أن تكون أحد الرعية أيضاً كي تعرف الحقائق المتعلقة بالأمراء.

وأنا أستأذن سموكم أن تقبل هديتي المتواضعة. فإذا نظرتم إليها ملياً يا صاحب السمو فستجدون أنها تعبر عن رغبتي الصادقة المخلصة في أن يبلغ سموكم شأناً رفيعاً أنتم أهل له لمنبتكم الشريف وصفاتكم الشخصية الفذة.

ولو تفضلتم سموكم بإلقاء نظرة على هذا الكتاب الصغير، فسوف يتأكد لكم من مدى الجهد الذي بذلته فيه وقدر المعاناة الطويلة التي كانت هي حظي في الحياة.

الناشر: مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع – ترجمة أكرم مؤمن - طباعة: علي محمد المسلمي- البريد الالكتروني: ali_hantool@hotmail.com

الفصل الأول

الأنواع المختلفة للحكومات وطرق إقامتها

كل الدول تمارس السلطة وتسيطر على الشعوب. وهي إمـا جمهوريـات أو ممالك. والممالك إما أن تكون وراثية وحكامها من أسرة واحدة وتـستمر في الحكـم لسنوات طويلة. أو أ ا تكون ممالك حديثة النشأة مثـل مملكـة "مـيلان" في عهـد "فرانسيسكو سفورزا". أ و تكون قد انضمت حديثاً كأجزاء جديـدة، تـضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة مثل مملكة نابولي في عهد ملك أسبانيا والممالك التي تكتـسب ذه الطريقة إما أ ا كانت في حوزة أمير آخر، أو أ ا كانت ممالك حـرة ثم ضـمها بالقوة إلى ملك الأمير نفسه، أو إلى أمراء آخرين وآلت إليه من بعدهم. أو أن القـدر قد ساقها إليه أو أن يكون قد تمكن من ذلك بسبب قدراته الخاصة.

الفصل الثاني

الممالك الوراثية

لن أتحدث هنا عن الجمهوريات حيث تناولتها تناولاً شاملاً في كتاب آخر، ولكني سأتناول هنا الممالك، وسأتناول أنواعها المختلفة التي سبق أن ذكرنا وكيفية حكمها والسيطرة عليها. وأول ما نلاحظه هو أن صعوبة الوصول إلى عرش الملك في مملكة وراثية اعتاد أهلها على الأسرة الحاكمة أقل بكثير من صعوبة الوصول إلى العرش في الممالك الجديدة. حيث لا يكفي تجنب الأوضاع التي كان يتبعها السلف والتحسب لأي طارئ. وفي مثل هذه الحالة فإن الأمير وإن كان ذا قدرات عادية فإنه سيستطيع أن يحافظ على عرشه إلا إذا اضطرته قوة غير عادية شديدة إلى التخلي عنه. وحتى إذا فقد عرشه، فإنه مع أول خطأ بسيط من المحتل، سيكون قادراً على استعادة العرش.

وعندنا في إيطاليا مثال واضح على لك وهو الدوق "فيريرا" الذي استطاع صد غارات "البنادقة" عام 1484م وكذلك صد البابا "جوليوس" عام 1510م لا لشيء سوى قِدَم أسرته في حكم هذه الدوقية. حيث إن الأمير الشرعي المحبوب من شعبه الذي لا توجد له رذائل مفضوحة أمام الناس لا يحب شعبه أن يتخلص منه، ومن الطبيعي لشعبه أن يتمسك به. ومن الطبيعي أن يتناسى الأسباب والدواعي البسيطة التي تدعوه لتغيير الحكام، حيث إنه إذا حدث تغيير مفاجئ، فإنه سيفسح الطريق أمام تغيير آخر.

الفصل الثالث
الممالك المختلطة

لا تكمن الصعاب حقاً إلا في الممالك الجديدة. فإذا كانت المملكـة ليـست جديدة بالكامل، أي أنها مملكة مختلطة بعضها حديث، والآخر قديم فإن الاضـطرابات تحدث فيها بسبب الصعوبات الطبيعية التي تحدث في كل الممالك الجديدة، وذلك لأن الناس يذعنون لسادتهم بإرادتهم على أمل تحسين أحوالهم وهذا الاعتماد يجعلهم يحملون السلاح ضد حكامهم، وهم في ذلك مخدوعون حيث أثبتت التجارب فيما بعد أنهـم يذهبون من سيء إلى أسوأ. وهناك ضرر طبيعي وحتمي ينتج عن هذه الحالة وهو يقع على هؤلاء الذين ساعدوا الأمير في السيطرة على مملكته سـواء كـانوا جنـوداً، أو مساعدين له، بالإضافة إلى الإصابات التي لا حصر لها التي تحدث بسبب احتلال جزء جديد.

وهكذا يتحول كل من أصيب في معركة قمت بها للسيطرة على الأرض عـدو لك، ولن تستطيع الحفاظ على صداقة من ساعدوك على الحصول على هذا الجزء من المملكة كما لن تستطيع تحقيق ما يتمنونه ولا أن تطبق عليهم قوانين صـارمة حيـث ستكون معترفاً لهم بجميل مساعدتهم لك. ولهذا السبب على أي حال، فإنك أيها الأمير ستكون في حالة دائمة إلى حب الناس حتى تستطيع السيطرة على بلادهم مهما كانت قوة جيوشك. وهذه هي الأسباب التي جعلت "لويس الثاني" عشر ملك فرنسا، وعلى الرغم من قدرته على احتلال "ميلان" بلا مشاكل، إلا أنه سرعان ما فقـد الـسيطرة عليها حيث استطاعت قوات "لودوفيكو" بمفردها أن تستعيدها منه في المـرة الأولى، وذلك لأن سكانها الذين فتحوا له بوابها بإرادتهم قد اكتشفوا أنهم قد خدعوا بآمال لم تتحقق ولم يحصلوا على أي ميزة كانوا يتوقعونها، فلم يتحملوا استمرار حكم ملكهـم الجديد.

ومن المعروف أن الأقاليم التي تتمرد على أمرائها يصعب فقدا ا مرة أخرى بعد استعاد ا، حيث يصبح الحاكم –وبسبب سابق تمردهم- أكثر حرصاً على دعم موقفه ومعاقبة المتمردين وكشف المرائين وتقوية نقاط الضعف. لذلك وعلى الرغم مـن أن مجرد ظهور الدوق "لودوفيكو" على الحدود كان كافياً لأن تفقد فرنسا سيطر ا على "ميلان" في المرة الأولى، إلا أن فقدان السيطرة عليها مرة أخرى لم يكن ممكناً إلا عندما تحالف الجميع ضدها وبعد أن هزمت جيوشها وطردت من إيطاليا. وذلك للأسـباب السابق ذكرها. أي أ ا سقطت في المرتين الأولى والثانية. وقد أشرنا تواً إلى أسـباب سقوطها في المرة الأولى. والآن يجب أن نعرف أسباب سقوطها في المرة الثانية وكيـف كان يمكن لفرنسا أن تتجنب هذا السقوط وما هي الإجراءات التي كان يجب اتخاذها لو أن هناك حاكماً آخر في مكان ملك فرنسا ليتجنب فقدان السيطرة على جزء مـن مملكته. وأول ما يجب علينا أن نسأل عنه هو ما إذا كانت هذه الأقاليم تتكلم نفس لغة وجنسية الدولة التي تضمها أم لا. فإذا كانت اللغة والجنسية واحدة فإنه من الـسهل ضم هذه الأقاليم والسيطرة عليها خاصة إذا كانت هذه الأقاليم غير معتـادة علـى التحرر ولكي نملكها بسلام يجب أن تمحى الأسر التي كانت تحكمها من الوجود. أما بالنسبة لبقية الشعب فإ م سيظلون تحت إمرة الأمير الجديد طالما أنه لم يحدث ما يغـير من ظروف حيا م السابقة، أو يغير من عادا م، وهذا واضح فيما حدث في كل مـن "بورجوندي، وبريتاني، وجاكسوني، ونورماندي" التي انضمت لفرنسا منـذ وقـت طويل، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات البسيطة في اللغـة، إلا أن عـادات الشعوب كانت متشا ة من جهة أخرى مما مكنهم من الاستمرار في الاتحـاد. ومـن يسيطر على أرض ويريد أن يحتفظ ا لابد أن يضع في اعتباره أمرين: أولهما القـضاء على الأسرة الحاكمة السابقة قضاءً مبرماً، وثانيهما عدم تغير أي قوانين أو ضـرائب خاصة ذه البلاد و ذه الطريقة ستصبح جزءاً من الاتحاد في وقت قصير جداً وتصبح الدولة كياناً واحداً.

الناشر: مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع – ترجمة أكرم مؤمن - طباعة: علي محمد المسلمي- البريد الالكتروني: ali_hantool@hotmail.com

ولكن عندما يكون شعب الأراضي المنضمة حديثاً يتحدث لغة مختلفة وقوانينه وعاداته مختلفة، فإن الصعوبات التي يجب التغلب عليها تصبح أكثر وتتطلب حظاً وفيراً وحنكة للتغلب عليها. وإحدى أفضل الطرق وأكثرها تأثيراً هي أن يقيم الحاكم الجديد في تلك الأرض. وهذا سيجعل ملكيته لها أكثر أمناً واستمراراً. وهذا هو مـا فعلـه الأتراك في بلاد الإغريق. فعلى الرغم من كل ما فعلوه هناك للسيطرة على الدولـة لم يكن من الممكن المحافظة عليها، لولا أن الحاكم ذهب وعاش هناك. فوجوده في موقـع الأحداث يمكنه من معاصرة الاضطرابات، وهي لا تزال في المهد ومـن ثم معالجتـها بسرعة، أما إذا عاش بعيداً عن تلك الأرض فإنه سيعرف بحدوث الاضطرابات فقـط عندما تكون قد تفاقمت، وغير قابلة للعلاج. كما أن رجال الأمير الرسميين لن ينهبوا البلاد، وسيسعد الرعايا بقربهم من الحاكم واتصالهم المباشر به. وإذا أرادوا أن يكونوا مخلصين له، فإنهم سيجدون كثيراً من الأسباب ليحبوه. أما إذا ظلوا علـى ولائهـم القديم، أو أنهم ينحازون ضد الحاكم الجديد فإن وجود الأمير الجديـد قريبـاً منـهم سيكون سبباً للردع والخوف منه. كما أن إقامته ستجعل أي قوى خارجية تهاب محاولة غزو تلك الولاية. وكلما طالت مدة إقامته فيها يصعب جداً تجريده منها.

والعلاج الآخر وهو أفضل يتمثل في زرع المستعمرات في عدة أمـاكن مميـزة بالأرض المستعمرة، ومن الضروري أن نفعل ذلك أو أن نحتفظ بعدد كبير من القـوات المسلحة في نفس المكان. والمستعمرات ستكلف الأمير أموالاً أقل، فهو يستطيع إرسال المستعمرين للإقامة هناك باستمرار بدون أي تكلفة مادية يدفعها أو بتكلفـة قليلـة. والمضرة ستقع فقط على هؤلاء الذي ستؤخذ بيوتهم أو أراضيهم لمنحهـا للمقـيمين الجدد، وهذا يعتبر نوعاً من الحماية للدولة، أما من تضرروا فإنهم لن يستطيعوا الانتقام من الحاكم إن ظلوا فقراء ومتفرقين. أما الباقون الذين لم تصبهم مضرة فمن الـسهل تهدئتهم، حيث أنهم سيخشون لقاء نفس المصير إن هم اعترضوا فسوف يجردون مـن ممتلكاتهم أيضاً. وخلاصة القول أن المستعمرات لا تتكلف أي مال وستكون أكثر ولاءً

وأقل اضطراباً، أما المتضررون فسيظلون غير قادرين على الإضرار بالحاكم ما داموا متفرقين وفقراء كما أوضحت. ويجب أن نلاحظ أن الرجال إما أن يستمالوا أو تتم إبادتهم، كما أنهم يثأرون لأنفسهم في الأمور الصغيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك في الأمور الكبيرة فإذا ما أضير الرجل مضرة كبرى فلا يجب علينا أن نخشى انتقامه. ووجود القوات بدلاً من استخدام طريقة المستعمرات سيكلف الحاكم مالاً أكثر، مما سيجعله ينفق كل عائدات هذه المستعمرة في المحافظة عليها، وبذلك يكون ضمها خسارة مادية، وإضافة على أن ضرر القوات العسكرية كبير حيث يتأذى كل من يعيش في تلك الأرض من عسكرة الجيش عليها. وهذه المضايقة الجماعية للشعب ستجعل من كل واحد منهم عدواً لك، يمكنه أن يفعل ما يضرك. فهم باقون بمنازلهم رغم الهزيمة. وعلى أي حال ستكون معسكرات الجيش عديمة الفائدة بينما تحقق المستعمرات فوائدها.

كما أن الحاكم الذي يحكم إقليماً أجنبياً كما أوضحت، يجب أن يجعل من نفسه قائداً وحامياً لجيرانه الأقل قوة منه ويسعى جاهداً لإضعاف الأقوياء منهم. وأن يحذر أن يغزوهم أجنبي أقوى منه، فمن لا يرضى بذلك سيدعوه للتدخل إما خوفاً أو طمعاً، وقد حدث ذلك حينما دعا "الإيتوليون" الرومان إلى بلاد الإغريق. وأي بلد دخلها الرومان كان بناء على طلب من أهلها وهناك قاعدة تقول: إن أي أجنبي قوي يدخل إلى بلد فإن كل المستضعفين من سكانها سيؤيدون هذا الأجنبي مدفوعين في ذلك بحقدهم على حكامهم. ولا يتكبد الأمير أي عناء في ضمهم إليه لأنهم ينضمون بإرادتهم إلى قواته الغازية. ويجب على الأمير فقط أن يحذر من أن ينالوا سلطاناً كبيراً أو قوة، حيث يتمكن من سحقهم، والسيطرة على الإقليم باستخدام قواته والموالين له. ومن لا يستطيع تحقيق ذلك سيواجه صعوبات ومشكلات لا حصر لها.

وقد ابتع الرومان دائماً هذه السياسة فيما سيطروا عليه من ولايات. فقد أقاموا المستعمرات وأقاموا علاقات حميمة مع الدول الضعيفة المجاورة دون السماح لها بمزيد

من القوة وأضعفوا الدول القوية ولم يسمحوا للحكام الأجانب بالسيطرة عليها. وسأضرب هنا مثلاً بولاية الإغريق حيث أقام الرومان صداقة مع "الآخيين والأيتوليين" إلا أنهم لم يسمحوا لهم بالتوسع في الإقليم. كما أنهم أضعفوا مملكة مقدونيا وطردوا "أنتيوكس" ولم يفلح صديقهم "فيليب" في استمالتهم له دون أن يضعفوا نفوذه كما لم تغرهم قوة "أنتيوكس" بالموافقة له على السيطرة على أي ولاية في المنطقة.

وفي كل هذه الحالات سلك الرومان مسلك الأمراء الحكماء، الذين لا ينظرون إلى اضطرابات الحاضر فقط، ولكن أيضاً على ما سيقع منها في المستقبل، ويتأهبون له قبل وقوعه. فما يمكن التنبؤ به يمكن علاجه بسهولة. إما إذا انتظرنا إلى أن تداهمنا المخاطر، فسيصبح العلاج متأخراً عن موعده وتستعصي العلة. ويحدث هنا مثلما يحدث في الحُميات غير المستقرة. فالأطباء يقولون أنها في بدايتها تكون صعبة التشخيص وسهلة العلاج بينما تكون سهلة التشخيص وصعبة العلاج وهي في نهايتها وهذا هو الحال في أمور الدولة. فإننا نرى الخطر المتوقع قبل حدوثه (وهي صفة الحكماء من الرجال فقط) فيسهل علاجه. ولكن إذا تركناها تستفحل ويعرفها الجميع فلن يوجد لها أي علاج وهذا كله بسبب قصر النظر. ولهذا فإن الرومان كانوا يكتشفون الاضطرابات وهي لا تزال في المهد واستطاعوا دائماً أن يعالجوها، ولم يتيحوا لها فرصة لتزداد حتى يتجنبوا الحرب، وذلك لأن الحرب إذا بدأت فلا مفر منها ولا يمكن تأجيلها إلى لما هو في صالح الطرف الآخر. ولذلك فهم قد أعلنوا الحرب على "فيليب" و"انتيوكس" في بلاد الإغريق حتى لا يضطروا إلى محاربتهما في إيطاليا، على الرغم من أنه كان متاحاً أمامهم تجنب كلتا الحربين. ولم يستجيبوا لنصائح من طلبوا منهم الانتظار والتريث لأن مرور الوقت قد يحمل معه خيراً أو شراً.

ولكن لنعد لفرنسا لنرى ما إذا كانت قد فعلت مثل ذلك أم لا. ولن أتحدث عن الملك "شارل" ولكن عن الملك "لويس" حيث أنه يمكن تحليل ما فعله بطريقة أفضل، ولوضوح سياساته وممارساته. كما أنه قد حكم إيطاليا لفترة أطول. وسترى

أيها الأمير أن الملك "لويس" فعل عكس كل ما يجب فعله للمحافظة على إقليم أجنبي فقد دعا طمع "البنادقة" الملك "لويس" إلى دخول إيطاليا حيث طمعوا في أن يكـسبوا نصف إقليم "لمبارديا" من وراء ذلك وأنا لن ألوم الملك على مجيئه إلى إيطاليا ولا على الجزء الذي احتله منها، وذلك أنه جاء رغباً في تثبيت أقدامه في إيطاليا، وليس لمصادقة أهل البلد. ولكن على العكس تماماً فقد أوصدت كل الأبواب في وجه الملك "لويس" بسبب هذا السلوك، فاضطر لقبول أي تحالف يعرض عليه، وكان من الممكن لخططـه أن تنجح بسرعة شديدة لولا وقوع أخطاء أخرى منه أثناء تنفيذ تلك الخطط.

والملك إذن حين سيطر على "لمبارديا" قد استعاد فوراً النفوذ الذي كان الملك "شارل" قد فقده فقد استسلمت له مقاطعة "جينوا" وأصبح "الفلورنسيون" أصدقاء له وتقرب إليه مركيز "مانتوا" وأدواق "فرارا" و "بنتيفولي" وأميرة "فورلي" وأمراء "فانزا وبيزاو وريميني وكاميرنو وبيمبينو" وأهل "لوكا وبيزا وسينا". وقد عرف البنادقـة في ذلك الوقت نتيجة طيشهم، ففي مقابل سيطرتهم على عدد قليل من المدن في "لمبارديا" تركوا الملك يحكم أكثر من ثلثي إيطاليا.

وتستطيع أيها الأمير أن تدرك أنه كان من السهل على الملـك "لـويس" أن يستعيد النفوذ الفرنسي على إيطاليا لو أنه طبق القواعد الأساسية التي سبق أن أشرت إليها وسيطر بحزم على حلفائه الذين كانوا كثيري العدد واضحي الضعف. فقد كانت مخاوفهم كبيرة سواء من الكنيسة أو من البنادقة الذين لم يرضوا بالوجود تحت إمرتـه وسلطانه وقد كان حلفاؤه الضعفاء مضطرين إلى الالتصاق به، وكان بإمكانـه ومـن خلال مساعدتهم له أن يتغلب على مناوئيه لكن الملك "لويس" فعل عكس ذلك تمامـاً فلم يكد يصل إلى ميلان حتى ساعد البابا "الكسندر" ليبسط نفوذه على إقليم رومـا. ولم يدرك الملك أنه بذلك قد أضعف نفسه وابتعد عن حلفائه الذي لجئوا إليه، ولطلبوا حمايته، كما أنه ضاعف من نفوذ الكنيسة بإضافة قوته الوقتية إلى قوتها الروحية. وقـد أدى هذا الخطأ الأول من الملك إلى سلسة أخطاء أخرى. فقد اضطر إلى أن يأتي بنفسه

إلى إيطاليا ليوقف نفوذ البابا "الكسندر" عند حدود معينة، ويمنعه من أن يكون حاكماً على "توسكانيا" لكنه لم يرض بأنه قد ساهم في زيادة قوة الكنيسة وفقد أصدقاءه، كما أنه كان يتمنى في ذلك الوقت أن ينال مملكة نابولي إلا أنه اقتسمها مع ملك أسبانيا، وبينما كان هو الوحيد المتحكم في إيطاليا أصبح الآن له شريكاً، فتلاشت الآمال المعلقة عليه وأصبح الناس غير مقتنعين به وباحثين عن غيره وبدلاً من أن يأتي بملك موال له، تخلص منه وأتى بغيره قادر على طرده هو من هناك.

إن الرغبة في تملك الأشياء أمر طبيعي وعادي جداً ومن يستطيع تحقيق ذلك يمدحه الناس ولا يلومونه، ولكن من يريد التملك ولا يستطيع تحقيقه فإنه يود أن ينجح مهما كلفة الأمر فيقع في أخطاء ينال عنها لوم كثير. فإذا كانت فرنسا في ذلك الوقت وبقواها الخاصة قادرة على السيطرة على نابولي فقد كان يجب عليها أن تفعل ذلك. وإذا كانت لا تستطيع فكان يجب عليها ألا تقتسمها فإذا كان هناك عذر لاقتسام "لمبارديا" مع البنادقة وهو أن ذلك الاقتسام قد سمح لملك فرنسا بإيجاد موضع قدم له في إيطاليا، فإن التقسيم الثاني يحسب عليه فلا توجد ضرورة لذلك.

وبهذا يكون الملك لويس قد ارتكب خمسة أخطاء: سحق القوى الصغيرة، وزاد من نفوذ قيام دولة واحدة في إيطاليا، وجاء بأجنبي قوي جداً إلى داخل البلاد ولم يذهب ليعيش هناك بنفسه، ولم ينشئ أي مستعمرات. ولو كان الملك "لويس" قد امتد به العمر، لما أضير من هذه الأخطاء الخمسة كثيراً. إلا أنه ارتكب الخطأ السادس وهو تجريد البنادقة من الولاية. وقد كان ذلك ضرورياً فقط لو لم يكن قد دعم قوة الكنيسة، وأتى بالأسبان إلى إيطاليا. وبما أنه قد فعل كل ذلك فكان من الأجدر به ألا يسعى إلى التخلص من البنادقة أبداً لأنهم إذا كانوا أقوياء وبإمكانهم أن يصدوا محاولات غزو "لمبارديا" وذلك لأنهم لن يقبلوا بأي شيء يحدث فيها ويخرجهم منها من جهة، ومن جهة أخرى لن يقدم أي طرف آخر لنزعها من فرنسا وإعطائها للبنادقة، ولا يوجد من عنده الشجاعة ليهاجم الاثنين معاً.

وإذا كان هناك من يرى أن الملك "لويس" قد سلم "رومانا" إلى "الكـسندر" ومملكة "نابولي" إلى الأسبان حتى يتفادى الحرب فإني أرد عليه بما ذكرته من أسـباب وبأنه لا يجب علينا أن نترك الاضطرابات تثور في مقابل تجنب الحرب. فالحرب لم يـتم تجنبها في هذه الحالة ولكنها تأجلت فقط والتأجيل ن يضر أي أحد سواك أنت يا مـن تسعى إليه. أما إذا ادعى البعض أن هذا الموقف الذي اتخذه الملك "لويس" كان بسبب وعد مع البابا بأن يقوم بتلك الحملة لحسابه على أن يطلقه البابا من زوجتـه ويـسند "كاردنالية إلى "روهان" فإني أرد على ذلك بما سوف أذكره فيما بعد عن وعود الأمراء وكيف ينبغي تناولها.وهكذا أضاع الملك "لويس" "لمبارديا" لأنه لم يفعل مثلمـا فعـل الآخرون الذين استولوا على أقاليم وأرادوا الاحتفاظ ا. وهذا المر ليس معجزة ولكنه منطقي وطبيعي. وقد تحدثت في هذا الموضوع مع الكاردينال "روهان" في "نانتس" وقد قال لي الكاردينال: إن الإيطاليين لا يعرفون معنى الحرب. وأجبته بـأن الفرنـسيين لا يعرفون معنى السياسة لأ م لو عرفوا معناها ما سمحوا للكنيسة أن تصبح قوية جـداً. والتجربة تقول: إن فرنسا هي سبب عظمة الكنيسة في إيطاليا وفي أسبانيا وهي أيـضاً سبب سقوطها. ومن هنا يمكننا استنتاج قاعدة عامة لا تخيب إلا فيما ندر وهـي "أن كل من يتسبب في أن يقوي غيره يهلك نفسه، لأنه إنما يفعل ذلك إمـا بالحيلـة، أو بالقوة. وهاتان الصفتان هما موضع شك ممن يصل إلى السلطة".

الفصل الرابع

لماذا لم تتمرد مملكة داريوس التي احتلها الإسكندر على خلفائه بعد وفاته

بالنظر إلى الصعاب التي تكمن في الاستيلاء على دويلات جديدة، قد يتعجب البعض من أن الإسكندر الأكبر وقد أصبح سيد آسيا خلال أعوام قليلة، لكنه لم يكد يحتلها حتى وافته المنية. وكان من المتوقع أن تثور جميع الولايات إلا أن الولايات كلها لم تتمرد على خلفائه وعلى أي حال، احتفظ خلفاؤه بملكها لأنفسهم ولم يواجهوا أي متاعب فيما بعد سوى تلك المتاعب التي حدثت بين بعضهم البعض بسبب مطامعهم الشخصية.

وأرد على ذلك بأن تاريخ حكم الممالك سجل طريقتين للحكم: إما أن يكون الحكم متمثلاً في أمير وأتباعه الذين يعملون كوزراء بجانبه، ويشاركون في السلطة بدعم وتأييد منه أو يكون الحكم لأمير ومعه عدد من البارونات الذين لا يعتمدون في قوتهم على الأمير وإنما على أصالة عائلاتهم القديمة. ولهؤلاء البارونات دويلات ورعايا خاصين بهم، ويعتبرهم رعاياهم أسياداً لهم، ويرتبطون بهم ارتباطاً وثيقاً. وفي الدول التي يحكمها الأمير وأتباعه، يكون للأمير سلطات أكثر، حيث لا يوجد بالدولة من هو أعلى منه مقاماً، والآخرون الذين يأتمرون به هم مجرد وزراء ومسئولين بدولة الأمير، ولا يوجد من يعطيهم أكثر من حقهم.

وفي عصرنا الحالي يوجد مثالين لهذين النوعين وهما الأتراك وملك فرنسا. فالمملكة التركية يحكمها حاكم واحد، والباقون هم خدامه، وهو قد قسم المملكة إلى سنجقيات يرسل إليها العديد من الإداريين، ويغيرهم، أو يستدعيهم حسب هواه. لكن لملك فرنسا محاط بعدد كبير من قدامى النبلاء ومكانتهم معروفة جيداً لرعايا الدولة، وهم أيضاً محبوبون منهم، ولهم امتيازات لا يستطيع الملك أن يحرمهم منها وإلا عرض نفسه للخطر. إن من ينظر إلى هاتين الدولتين سيجد أنه من الصعب جداً الاستيلاء

على الدولة التركية لكن السيطرة عليها سهلة جداً لأسباب عديدة وذلك في حالة هزيمتها. أما مملكة فرنسا فمن السهل جداً إسقاطها لكن السيطرة عليها أمر شديد الصعوبة.

إن أسباب صعوبة احتلال المملكة التركية هي أن الغازي لن يجد ترحيباً من الأمراء الموجودين بالمملكة، ولا يأمل في أن تساعده في حملته حركات تمرد بزعامة هؤلاء الذين كانوا مقربين من الملك للأسباب المذكورة سابقاً. فمن الصعب إفساد هؤلاء القوم لأنهم جميعاً عبيد للسلطان، وأتباع له، وحتى لو تمكنا من إفسادهم، فلن نستفيد من ذلك كثيراً لأنهم لن يستطيعوا ضم الشعب إليهم للأسباب السابق ذكرها. لذلك فإن على من يرغب في الهجوم على سلطان الأتراك أن يواجههم قواتهم المتحدة، وأن يعتمد على قواته وليس على ما يمكن أي يحدث من تمرد يقوم به آخرون ضد السلطان ولكن بمجرد أن يتمكن من هزيمته في معركة واحدة بحيث لا يمكنه تكوين الجيش مرة أخرى فلن يكون هناك أي خطر عليه سوى من العائلة المالكة، فإذا أبيدت هذه الأسرة، فمن يوجد بعد ذلك من يخشاه أما الآخرون الذين كانوا حول الملك قبل النظر، فلا خوف منهم الآن، فإذا كان المنتصر لم يعلق أي أمل عليهم قبل النصر، فلا يجب أن يخشاهم بعد النصر.

والعكس صحيح في الممالك التي تحكم مثلما تحكم مملكة فرنسا، وذلك لأنه يمكن الدخول إليها باستمالة بعض بارونات المملكة، فلابد أن يكون منهم الساخطون ومحبو التغيير. وهؤلاء –للأسباب السابق الحديث عنها- يمكنهم أن يفسحوا الطريق لك، ويجعلوا لك النصر سهلاً ميسراً.

ولكن فيما بعد إذا أردت الاحتفاظ بهذا الملك فيما بعد فإن المشكلات التي ليس لها نهاية تبدأ في الظهور وسيكون سبب المشكلات هم هؤلاء الذين ساعدوك والذين تعسفت معهم على حد سواء. ويصبح التخلص نهائياً من أسرة الأمير غير

كاف لأن النبلاء سيبقون ويتزعمون الثورات الجديدة. ولأنك لن تستطيع إرضـاءهم أو القضاء عليهم، وستفقد الولاية عندما تحين أول فرصة لذلك.

والآن إذا تأملت طبيعة حكومة مملكة "داريوس" فإنك ستجدها مماثلة للمملكـة التركية، ولذلك كان على "الاسكندر" أن يسقطها بالكامل أولاً بغزو جميع أراضـيها وبعد النصر وموت "داريوس" استتبت الأحوال في الولاية للإسكندر وذلك للأسباب التي ناقشناها فيما سبق. ولو أن خلفاءه ظلوا متحدين لما ثارت أي مشكلات ولعاشوا فيها في سلام ولكن مشكلا م قد حدثت فيما بين بعضهم البعض. فمن المستحيل إذن أن السيطرة على دول متحدة مثل فرنسا بمثل هذه السهولة وهذا هو سـر الثـورات التي قامت بين وقت وآخر ضد الرومان في أسبانيا وفرنسا واليونان. وذلـك نظـراً لوجود إمارات عديدة في تلك الدول. ولم تستتب الأمور لحكم الرومان المزعـزع إلا عندما انتهى ذكر هذه الإمارات ومحيت وأصبح الرومان سادة لا بديل لهم. وعنـدما دب الخلاف بين الرومان كان في مقدور كل واحد منهم أن يعتمـد علـى مـساندة منطقته له حيث كون سلطاناً لنفسه. لكن الرومان لم يتم اعتبارهم حكاماً هناك إلا بعد انقراض الأمراء من الأسر الحاكمة القديمة.

فإذا نظرنا إلى هذه الأمور فليس لنا أن نعجب للـسهولة الـتي سـيطر ـا الإسكندر على آسيا، ولا الصعوبات التي لاقاها غيره ممن فتحوا أقاليم مثل "بايروس" وغيره كثير. لأن ذلك لا يعتمد على قدرة الفاتح سواء عظمت أم تضاءلت لكن الأمر يتوقف على ظروف مختلفة.

الفصل الخامس
طريقة حكم المدن والممالك التي كانت تعيش قبل احتلالها في ظل قوانينها الخاصة

عندما تكون تلك المدن التي تم الاستيلاء عليها معتادة على الحياة الحرة في ظل قوانينها الخاصة، هناك ثلاث طرق للسيطرة عليها: فإما أن يلغيها الأمير أو أن يذهب بنفسه، ويعيش هناك أو أن يسمح لها بالاستمرار في استخدام القوانين السابقة مع دفع الجزية. ونوجد داخل الدولة حكومة مكونة من عدد قليل ممن يحافظون علـى ولا ـا لك. ولأن هذه الحكومة التي شكلها الأمير تعرف أ ا لا يمكن لها أن تـستمر بـدون رضائه وحمايته، فهي ستفعل كل ما في وسعها للحفاظ على هذا الرضا وهذه الحماية. ومن جهة أخرى فإن المدينة التي اعتادت الحياة بحرية يمكن السيطرة عليها من خـلال مواطنيها أكثر من أي طريقة أخرى، وذلك إذا أردت أن تستثمر هذه السيطرة.

ومثال ذلك هم الإسبرطيون والرومان حيث سيطر الإسبرطيون علـى أثينـا وطيبة من خلال حكومة قليلة العدد، إلا أ م فقدوا السيطرة عليها. بينمـا خـرب الرومان كابو وقرطاجنة ونومانطة من أجل السيطرة على اليونان بنفس الطريقة الـتي استخدمها الإسبرطيون تقريباً وذلك بتركها حرة تعيش في ظل قوانينها الخاصـة، إلا أ م لم ينجحوا في ذلك. واضطروا إلى تخريب كثير من المدن ا حتى يضمنوا الاحتفاظ ا، ففي الحقيقة لم تكن هناك طريقة أكيدة للإبقاء عليها سوى التخريب. ومن يصبح حاكماً لمدينة حرة ولا يدمرها فليتوقع أن تقضي هي عليه، لأ ا ستجد دائماً الـدافع للتمرد باسم الحرية وباسم أحوالها القديمة. وهي أشياء لا تنسى لا بمرور الزمن ولا بما يناله أهلها من مزايا. ومهما فعل الحاكم ومهما احتاط للأمـر فـإن أهـل المدينـة سيستجيبون لندائها فوراً عند حدوث أي طارئ، وذلك مثلما حدث في بيزا بعـد أن سيطر عليها "الفلورنسيون" واستعبدوها لسنوات عديدة. ولكن عندما تكون المدن أو

الأقاليم قد ألفت الحياة في ظل أمير وأسرة حاكمة ثم تختفي هذه الأسرة تماماً، فإن هذه المدن قد اعتادت على الطاعة من جهة، ومن جهة أخري لا يجدون أمـيراً لهـم، ولا يستطيعون الاتحاد تحت راية واحدة يختارونه من بينهم ولا يعرفون حياة الحرية، لهـذا فإ م لن يقدموا على حمل السلاح بسرعة وسيتمكن الأمير من الانتصار عليهم بسهولة شديدة ومن دعم موقفه وتأمينه. لكن في الجمهوريات تكون الحياة أفـضل والعـداء أشد، كما أن الرغبة في الانتقام تكون أشد، فالناس لن تتخلى عن ذكريات حريتـها القديمة بسهولة. لذلك فإن الطريقة الأكيدة هي إما أن نخر ا، أو أن نقيم فيها.

الفصل السادس

حول الولايات الجديدة التي ضمها الأمير بقدراته وجيوشه

لا عجب إذا كنت قد قدمت أمثلة حديثة جداً سواء فيما يخص الأمير أو الولاية وذلك في أثناء حديثي عن الولايات الجديدة. وذلك لأن الناس دائماً يسيرون في الدروب التي طرقها غيرهم، وأن تحاكي أعمالهم أعمال الآخرين. والعاقل من الرجال لا يستطيع أن يتبع آثار الآخرين، ويقلدهم تماماً ولا أن يحقق ما حققوه من نجاح وتميز. إلا أنه إن لم يبلغ حصتهم من العظمة والتميز فسيصيبه نفحة منها على أي حال. وهو هذا يفعل مثلما يفعل الرماة المحترفون الذين يصوبون إلى نقطة أعلى من النقطة التي يردونها حينما يكون الهدف بعيداً جداً وهم على علم بمدى الرمي الممكن للقوس الذي يستخدمونه. وهم بالتصويب على ما هو أبعد يصيبون الهدف المقصود تماماً.

وعلى هذا الأساس أقول بأن السيطرة على الأمور في الولايات الجيدة تتفاوت تبعاً لقدرات من يستولي عليها. ولما كان أي فرد عادي لا يصل إلى مرتبة الإمارة إلا من واقع قدراته الفائقة أو حظه السعيد، فإن أحد هذين الأمرين يخفف ما يلقاه من مصاعب كثيرة ومع هذا فإن من لا يعتمد على حسن الطالع يحفظ نفسه على أفضل حال. ومما يخفف العبء الجديد عن الأمير أيضاً هو إقامته في الإقليم الجديد، إذا لم يكن لديه غيره. أما إذا أردنا التحدث عن هؤلاء الحكام بفضل ما لديهم من قدرات عالية، وليس بفضل حظهم السعيد، فسنجد أن أعظمهم جميعاً هو "موسى" –عليه السلام- و"كورش ورومولوس وتيسيوس" وغيرهم. على الرغم من أننا لا ينبغي لنا أن نتحدث عن موسى لأنه رسول الله الذي نفذ ما أمر به، إلا أنه يظل جديراً بالإعجاب لأنه ذو فضل أهله لأن يكون كليم الله –سبحانه وتعالى- أما كورش وغيره ممن ورثوا الممالك وأسسوها فإنهم جميعاً يستحقون الإعجاب. فما قاموا به من أعمال وما حققوه لا يختلف

كثيراً عما قام به موسى –عليه السلام- رغم أنه كان رسولاً. وإذا ما تفحصنا حيا م وأعمالهم لن نجد أ م قد ركنوا إلى الحظ في أي سيء. لكن ما حصلوا عليه من فرص هو ما ساعدهم على صياغة ما حولهم فيما رأوه مناسباً. ولولا هذه الفرص ا ـضاعت قدرا م أدراج الرياح. وبدون تلك القدرات لما كان للفرص أي معنى.

وهكذا كان من الضروري لموسى أن يجد بني إسرائيل عبيـداً في مـصر وأن يضطهدهم المصريون، وذلك حتى يكونوا مستعدين للسير خلفـه ليتخلـصوا مـن العبودية. وكان من الضروري ألا يستطيع "رومولوس" البقاء في ألبـا، وأن يتـرك في العراء يوم مولده حتى يصبح ملك روما ومؤسس تلك الأمة. وكان مـن الـضروري أيضاً أي يجد "كورش" أن الفرس ساخطون على إمبراطورية الميـديون، وأن يكـون الميديون ضعفاء ومخنثين بسبب طول فترة السلم. وما كان لتيسيوس أن يظهر قدراتـه لولا أنه وجد أن الأثينيين مشتتون. فهذه الفرص قد سنحت لهؤلاء الرجال وساعد م صفا م العظيمة على الاستفادة منها. وهم بذلك يزيدون من رفعة أوطا م ويزيـدو ا فلاحاً وسعادة.

إن من يستفيدون من قدرا م حتى يصبحوا أمراء يحـصلون علـى الإمـارة بصعوبة، إلا أ م يحافظون عليها بسهولة. والصعوبات التي تواجههم في ذلك ترجع إلى حد ما إلى القواعد والتعديلات الجديدة التي يضطرون إلى إدخالها حتى يستتب السلام في ولايا م ويجب أن ندرك أنه لا يوجد أصعب من بدء نظام جديد لتـسيير الأمـور وتنفيذه. فنجاحه مشكوك في أمره وليس هناك ما هو أخطر من التعرض لهذا الأمـر. لأن من يريد الإصلاح لابد له من أعداء وهم جميع من كانوا يستفيدون مـن النظـام القديم، وهناك أيضاً من يؤيده بفتور رغم استفاد م من النظام الجديد. ويرجع هـذا الفتور –من ناحية- إلى خوفهم من خصومهم الذين يساندهم القانون، ومـن ناحيـة أخرى إلى أن الناس لا تؤمن بالجيد إلا بعد أن تجربه فعلاً. وعلى هذا فـإن المـصلح يهاجمه خصومه بحماس شديد في كل فرصة، بينما يدافع عنه الآخرين دفاعاً فاتراً، حتى

أنه يواجه خطراً كبيراً جداً وهو ما بين أولئك وهؤلاء. لذلك فإننا إذا أردنا أن نتناول هذه القضية بدقة، لابد لنا أن نعرف أولاً ما إذا كان المصلحون يعتمدون على أنفسهم، أم أ م يعتمدون على الآخرين. وبعبارة أخرى هل هم قادرون على استمالة غيرهم لينفذوا ما وضعوه لهم أم أ م يستطيعون فرضه؟ ففي الحالة الأولى لن يحققوا سوى فوزاً ضعيفاً. ولا ينجزون شيئاً. أما إذا استطاعوا الاعتماد على سطو م ولديهم القدرة على استخدام قو م فإ م لا يفشلون إلا فيما ندر. و ذه الطريقة استطاع جميع الأنبياء المسلحين أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم. وذلك –بالإضافة إلى ما ذكرناه- يرجع إلى أن طبيعة البشر متقلبة ومن السهل تحفيزهم لشيء، ما ولكن من الصعب استمرار هذا الحافز ولذلك يجب أن نرتب أمورنا حتى يمكننا أن نستخدم القوة معهم لنردهم إلى الإيمان بما ارتدوا عنه. ولو كان كل من موسى –عليه السلام- وكورش وتيسيوس ورومولوس عزلاً من السلاح لما استطاعوا أن يجعلوا الآخرين يحترمون دساتيرهم لفترات طويلة، وهذا هو ما حدث في عصرنا الحالي مع الأخ جيرولامو سافونا حيث فشل فشلاً ذريعاً في تطبيق شريعته الجيدة عندما بدأ الكثير من الناس في الكفر به ولم يكن لديه القوة التي تمكنه من أن يجبرهم للعودة إلى الإيمان بما يقوم به. وعلى ذلك فإن من هم مثل هذا الرجل يجدون صعوبة كبيرة في شق طريقهم، فهم يقابلون جميع الأخطار في طريقهم، ولابد لهم من التغلب عليها بما يملكون من قدرات ولكن بمجرد أن يتغلبوا عليها ويصلوا إلى مكانة عند قومهم ويسحقوا من يحسدهم عليها يمكنهم أن يظلوا أقوياء مكرمين وسعداء.

ولكل هذه الأمثلة الواضحة التي ضربتها أضيف مثالاً آخر أقل منها، وهو على أي حال مثال يمكن مقارنته بجميع الحالات المماثلة. إنه مثال "هيرو" السيراكوزي الذي أصبح أمير سيراكوز بعد أن كان مجرد فرد عادي. ولم يتدخل الحظ في ذلك مطلقاً لأن أهل سيراكوز الذي كانوا مضطهدين قد اختاروه رئيساً لهم، وقد ارتقى بما لديه من قدرات من هذا المركز إلى مرتبة الإمارة. وكما قال عنه الكتاب: "لم يكن ينقصه لكي

يحكم –وهو مازال فرداً عادياً- سوى المملكة. "وقد ألغى نظام المندية القديم وأحل محله نظام جديد وتخلى عن جميع الأحلاف القدامى وعقد غيرها. وعندما أصبح عنده أصدقاء وجنود من اختياره أصبح قادراً أن يعتمد على ذلك وهو آمن. وبينما وجد صعوبة في الوصول إلى مكانته إلا أنه لم يتعب كثيراً في المحافظة عليها.

الفصل السابع

الممالك الجديدة التي يتم الحصول عليها بقوة الآخرين أو بالصدفة

إن من ارتفع من مكانة المواطن العادي إلى منصب الأمير بمحض الصدفة لا يواجه سوى متاعب قليلة حتى يصل لهذه المكانة، إلا أنه يواجه كثيراً من الصعاب عندما يريد الحفاظ على هذا المنصب. وهم لا يجدون أي صعاب في طريق المناصب لأنهم يطيرون إليها. أما ما يجدونه من صعاب فإنها تحدث بعدما يستقرون فيها. ومن أمثال هؤلاء من حصل على دولة في مقابل المال أو تفضلاً ممن يمنحه هذا المنصب كما حدث في كثير من الحالات الإغريقية في مدن "أيونا وهيلسبونت"، وهم من جعلهم "داريوس" أمراء للسيطرة على هذه الأماكن من أجل سلامته وسلطانه. ومن أمثال من هؤلاء أيضاً الأباطرة الذين ارتفعوا إلى تلك المناصب برشوة الجيش، حيث اعتمدوا اعتماداً تاماً على النوايا الحسنة لمن يساعدهم، وعلى حسن طالعهم. وهما أمران لا يستمران طويلاً ولا يظلان ثابتين بنفس القدر بصفة دائمة. وهم لا يعرفون كيفية المحافظة على الولايات ولم يمروا بمواقف تمكنهم من ذلك. وإن لم يكن هذا الفرد العادي الذي عاش حياة عادية ذا عبقرية فذة، فلن يعرف كيف يأمر وينهى. وهم في ذلك لن يستطيعوا الحفاظ على أنفسهم لأنهم لا يملكون قوات تدين لهم بالولاء، إضافة على أن الدول التي تنمو سريعاً –مثلها في ذلك مثل أي شيء آخر ينمو سريعاً- لن تستطيع أن تثبت جذورها وتتعمق كما أنها تندمر بسبب أول عاصفة تهب عليها. وهناك استثناء كما قلنا وهو أن يكون من وصل إلى الإمارة قادراً على اتخاذ خطوات يحافظ بها على ما ألقاه إليه حسن طالعه، ثم بعد ذلك يضع الأسس التي يضعها غيره قبل أن يصبحوا أمراء.

وسوف أضرب هنا مثالين قد قفزا إلى ذاكرتي وهما يجسدان الوصول إلى الإمارة إما بالقدرة، أو بحسن الطالع، وهذان المثالان هما: فرانتشسكو سفورتسا"

و"قيصر بورجيا". فقد اصبح "فرانتشسكو" دوق ميلانو بالوسائل المناسبة وبسبب قدراته، بعدما كان مواطناً عادياً. وبقليل من المعاناة حافظ على ما قد حصل عليه بعد مروره بصعوبات كبيرة. ومن جهة أخرى حصل قيصر "بورجيا" المعروف باسم دوق "فالنتين" على الملك بفضل نفوذ والده، وفقده عندما فُقد هذا النفوذ، وذلك على الرغم من أنه بذل كل ما يمكن أن يقوم به رجل حكيم، حتى يوطد أقدامه في ولاية حصل عليها بسبب ما لغيره من قدرات وسلاح. ومن لم يرس قواعد البناء في وقتها المناسب يمكنه أن يفعل ذلك فيما بعد رغم ما في المر من خطر على البناء نفسه، وما فيه من عناء على مهندس هذا البناء. ولو نظر المرء بعين الاعتبار إلى الإجراءات التي اتخذها الدوق فسوف يلاحظ قوة الأسس التي وضعها لسلطانه القادم، وتأمل هذه الإجراءات شيء لازم، فما قام به الدوق لا يفوقه شيء آخر، ولا يقلل من قيمته أنه استخدم وسائل غير ناجحة، فهذا ليس خطأه، ولكنه كان بسبب سوء حظه الشديد ليس إلا.

عندما أراد "الإسكندر" السادس أن يعلي من شأن ابنه الدوق كان عليه أن يمر بكثير من الصعاب في الحاضر والمستقبل. وأول ما واجه من مشكلات هو أنه لم يجد سبيلاً لجعله حاكماً لأي ولاية لا تخص الكنيسة. وكان يعلم أن محاولته لكي يسيطر على مدن الباب لن ترضي دون ميلانو والبنادقة. وذلك لأن "فائزا وريميني" كانتا تحت حماية البنادقة في ذلك الوقت. بالإضافة إلى أنه لاحظ أن القوات المسلحة في غيطاليا خاصة تلكالقوات التي يمكنها أن تخدمه كانت تحت إمرة أولئك الذين يخشون عظمة البابا، وهو بالتالي لا يمكنه أن يعتمد عليهم وذلك لأنها جميعاً كانت تحت قيادة الأورسيني وكولونا وأتباعهما. ولذلك كان من الضروري بالنسبة له أن يجعل الحالة الراهنة في إيطاليا تضطرب، وأن يثير الفتن في الولايات الإيطالية حتى يضمن السيادة على جزء منها. وقد كان ذلك يسيراً بالنسبة له حيث وجد أن البنادقة –وبسبب دوافع أخرى- قد دعوا الفرنسيين إلى دخول إيطاليا. وهو لم يعرض ذلك فحسب بل

إنه سهله بإ اء الزواج الول للملك لويس. وهكذا جاء الملك إلى إيطاليـا بمـساعدة البنادقة ورضاء الإسكندر. ولم يكد الملك يصل إلى ميلان حتى أخذ منه البابا قـوات لحملته على رومانا التي أمكن فتحها بسبب شهرة الملك. وبعدما تم له ما أراد وسيطر على "رومانا" وهزم "الكولونيين"، أعاقه عن الاحتفاظ ا والتقدم أمران اثنان: أولهما أنه شك في ولاء قواته، وثانيهما هو النية الفرنسية بمعنى أنه خشي أن تتخلى عنه قوات الأورسيني التي سبق له استخدامها وحققت له النجاح، وهو يخشى في نفس الوقت أن تكون سبباً لفشله. فهي قد لا تعوقه عن التوسع فقط بل قد تسلبه ما فتحه حتى الآن. كما خشي أن يفعل الملك نفس الشيء، وكان دليله على ذلك أنه بعدما سيطر علـى "فائئ ا" أغار على "بولونيا" فتخلف عنه "الأورسيني" أما بالنسبة للملك فقـد تنبـه لنواياه عندما استولى على دوقية "أوربينو" وهاجم "توسكانيا" فأوقفه الملك عن هـذه الحملة. ومنذ ذلك الحين عزم الدوق على ألا يعتمد على أسلحة غير أسـلحته أو أن يعتمد على حسن طالع يخص أحداً غيره، وكان أول ما فعله هو إضـعاف أحـزاب "الأورسيني" و:الكولونا" في روما وذلك بأن جذب على صفه جميـع أتباعهمـا مـن الأعيان، وجعلهم من تابعيه بأن أجزل لهم العطاء وعينهم في مناصب، وولاهم أعمالاً كل حسب قدره، وخلال شهور قليلة انقطعت صلتهم بأحزا م والتـصقوا بالـدوق بشدة وبعد أن سحق زعماء الكولونا انتهز الفرصة لكي يبطش بزعماء الأورسيني حين واتته الفرصة فأحسن استغلالها. وكان الأورسينون حـين رأوا أن عظمـة الـدوق والكنيسة ستعني سقوطهم قد دعوا إلى عقد مجلس في "ماجيوني" وفي ذلك الحين قامت ثورة "أوربينو" وحدثت اضطرابات في "رومانا"، وظهرت أمـام الـدوق أخطـار لا تحصى، لكنه استطاع أن يتغلب عليها كلها بمساعدة الفرنسيين وبعد أن استعاد سمعته لم يعد يثق بالقوات الفرنسية أو أي قوات أجنبة ولم يغامر بالتحالف مع أي منها فلجأ للخداع فأخفى أغراضه الحقيقة جيداً، حتى سالمه الأورسينون، وذلك بأن نزع كل من كان لدى ممثلهم السيد "باولو" من شكوك بأن أغدق عليه بالمال والملابس والجياد حتى

أغر م سذاجتهم، فأتوا إلى "سنجاجليا" ووقعوا في قبضته و ذا تخلص الدوق ائياً من هؤلاء الزعماء ذه الطريقة، وجعل من أنصارهم أصدقاء له، ووضع الأسس القويـة جداً لنفوذه ثم استولى على كامل "رومانا" مع دوقية "أوربينو"، وكسب رضا سـكا ا الذين بدءوا يشعرون بمميزات حكمه.

وهذا الدور جدير بأن يلاحظه الآخرون ويسيرون على منواله ولن أتوقف عن الحديث عنه فعندما سيطر الدوق على "رومانا" كان حكامه السابقون ضعفاء وكـانوا ينهبون الرعية بدلاً من أن يحكموهم، ويعملون على فرقتهم وليس توحيـدهم، حـتى أصبحت المقاطعة فريسة للصوصية، والسلب، وجميع أنواع الفوضى لذلك رأى الدوق أن إيجاد حكومة صالحة فيها هو أمر مهم جداً، حتى يجعل أهلها مسالمين ومدينين لحكمه بالطاعة لذلك فقد ولي عليهم "روميرو دي أوركو" وكان رجلاً قاسياً، وقادراً، ومنحه سلطات كاملة فنجح "روميرو" نجاحاً كبيراً في توحيد البلاد وتنظيمها في وقت قـصير إلا أن الدوق قد رأى أن السلطة المتناهية غير مناسبة، وأ ا مـن الممكـن أن تولـد الكراهية في نفوس الناس، فأنشأ داراً مدنية للعدل برئاسة رجل ممتاز وعينت كل مدينة محامياً خاصاً ا في هذه الدار ولما علم أن ما حدث من قسوة بالأمس القريب قد ولد في النفوس مقداراً من الكراهية قرر أن يعلن للجميع أن ما حدث لم يكن بسبب أوامر أصدرها وإنما بسبب ميول الوزير الفظة وذلك لكي يطهر نفوس الناس ويكسبها تماماً لصالحه وعندما حانت الفرصة قتل "روميرو" وشطر جسده إلى نصفين، ثم ألقـاه ذات صباح في ميدان عام في "شيزينا" وبجانبه قطعة من الخشب وسكين ملطـخ بالـدماء، فذهل الشعب لوحشية هذا المنظر إلا أنه رضي بذلك.

ولنعد إلى حيث توقفنا، الآن أصبح الدوق قوياً، وفي مأمن من الأخطار الراهنة ولديه سلاحه الخاص، وقد قضي –إلى حد كبير- على القوى ا اورة التي قد تؤذيه ولم يبق أمامه الآن إذا أراد أن يواصل الفتح سوى أن يفوز باحترام فرنسا له. حيث علم أن الملك –الذي اكتشف خطأه مؤخراً قد لا يمد يد العون إليه أبداً لـذلك بـدأ في

البحث عن أحلاف جديدة وفي مراوغة فرنسا ول الحملة التي كان الفرنسيون يقومون ا تجاه نابولي وضد الأسبان الذين كانوا يحاصرون جيتا كان يريد أن يتوثـق منـهم، وكان من الممكن أن يوفق في ذلك بسرعة لو أمد الله في عمر الإسكندر.

وكان هذا هو ما فعله الدوق ويخص الحاضر أما فيما يخص المستقبل فقد خشي أن يعاديه وريث جديد لولايات الكنيسة، وربما يسعى لأن يسلب منه ما قد منحه إياه الإسكندر ولذلك حاول اتقاء هذا الأمر بأربعة طرق وهي: أولاً: قضى قضاء مبرمـاً على كل من تجري في عروقه دماء الأسر الحاكمة التي اغتصب ملكها حتى لا يمكـن للبابا أن يستغل أي فرصة ضده وثانياً: كسب جميع نبلاء روما إلى صفه ليكبح ـم جماح البابا وثالثاً: لم يدخر وسعاً في السيطرة على مجلس الكرادلة ورابعاً: حصل قبـل وفاة البابا على نفوذ كبير يمكنه من أن يصد أول هجوم قد يشن عليه وعند وفاة البابا كان الدوق قد أنجز الأمور الثلاثة الأولى وعلى وشك إنجاز الأمر الرابع فقد قتل كثيراً من استطاع الوصول إلهم من الحكام السابقين وفر منهم عدد قليل جداًن وتمكن مـن ضم نبلاء روما إلى صفه وكان له نفوذ كبير في مجلس الكرادلة أما بالنسبة لضم أرض جديدة، فقد وضع لنفسه خطة لكي يصبح سيد "توسكانيا" وقد كان ملك "بورجيـا" و"بيومبينو" منذ فترة وجيزة كما فرض حمايته على "بيزا" وقد سيطر عليها عنـدما لم يعد يخشى الفرنسيين (وذلك لأن الأسبان قد جردوا الفرنسيين من مملكـة "نـابولي: بطريقة جعلت كلا الطرفين يخطب وده) ثم استسلمت له "لوكا وسيينا" دفعة واحـدة بسبب كراهيتهم للفلورنسيين من جهة والخوف من جهة آخرى، فلم تكن تملـك أي موارد فإذا كان الدوق قد حقق نجاحاً مثلما الذي حققه عام وفاة الإسكندر، لكان له من القوة والقدرة ما يمكنه من أن يحاف على نفسه دون الحاجة للاعتماد علـى قـوة الآخرين وحسن طالعهم لكن الإسكندر مات بعد خمس سنوات فقط من إشهار قيصر بورجيا لسيفه لأول مرة، وتركه وهو لم تستتب له المور إلا في "رومانا" أما بقية الأنحاء فهي معلقة في الفضاء بين جيشين قويين جداً ومعاديين له وكان يعاني أيضاً من مـرض

عضال إلا أن الدوق كان لديه القدرة والحيوية ويعرف جيداً كيف يكـسب تأييـد الرجال وكيف يقهرهم وقد كانت قواعد ملكه التي وضعها في فترة وجيزة قوية جداً، لدرجة أنه لولا وجود هذين الجيشين على مقربة منه واعتلال صحته لأمكنه التغلـب على بقية الصعاب وتتضح قوة الأسس التي وضعها في انتظار "رومانا" له لمدة تزيد عن الشهر رغم كونه نصف ميت في روما إلا أن مركزه ظل قوياً وعلى الـرغم مـن أن "الباجليوني والفيتلي والأورسيني" قد دخلوا إلى روما، إلا أ م لم يجدوا فيها من يقـف ضده، فقد كان في استطاعة الدوق على أقل تقدير أن يحول بين كرسي البابوية، وبين من لا يرغب هو فيه، إذا لم يكن قادراً على تنصيب من يشاء وربما تيسرت له كل هذه المور لو كان سليماً بصحة جيدة حين توفي الإسكندر ولقد أخبرني في يوم انتخاب البابا "يوليوس الثاني" بأنه قد فكر في كل ما يمكن أن يحدث عند وفاة أبيه، واحتاط لجميـع الأمور عدا أمر واحد لم يدر بخلده وهو أنه هو نفسه سيكون قريباً من الموت في ذلك اليوم.

وعندما أراجع أعمال الدوق لا أجد ما ألومه عليه بل إني أجد لزاماً علـي أن أرفعه كمثال يجب أن يحتذيه كل من حصل على سلطان بسبب ما قامت به قوات غيره وحسن طالعهم وهو بسبب شجاعته العظيمة وطموحه الكبير لم يكن أمامه أن يفعـل غير ما فعل ،وما أحبط خططه إلا قصر حياة "الإسكندر" ومرضه هو شخصياً لـذلك فإن على كل من يعد الضروريات لتأمين إمارته الجيدة أن يؤمن نفسه ضد أعدائه، وأن يكسب الأصدقاء، وأن تكون له الغلبة بالقوة أو بالخديعة وأن يحبه الشعب ويخـشاه حيث يسير جنوده خلفه ويحترموه وأن يسحق من يستطيع أن يؤذيه، أو من الممكن أن يؤذيه وأن يستبدل القديم من الأوضاع بكل ما هو حديث وأن يكون صارماً وشفوقاً في نفس الوقت، كريم الخصال واسع المدارك وأن يلغي نظام الجندية القديم ويحل محله نظاماً جديداً وأن يحافظ على صداقته مع الملوك والأمراء بطريقة تسعدهم إذا فعلوا ما يفيده، وتخيفهم منه إذا ناله منهم مضرة ومثل هذا الأمير لن يجد مثالاً يحتذيـه مثـل

أعمال هذا الدوق إلا أن النقد الوحيد الذي يمكن أن يوجه لهذا القيصر هو انتخـاب "جوليوس الثاني" للبابوية، حيث أساء الاختيار وذلك أنه –كما قيل- إن لم يكن قادراً على انتخاب بابا يوافقه هو، فكان عليه ألا يسمح لأي كاردينال بأن يصل للبابويـة كما كان من واجبه ألا يسمح بانتخاب أي كاردينال سبق أن أساء هو إليه، أو من ق يخشاه الدوق إذا وصل إلى كرسي البابوية إن من أساء إليهم القيصر هم: "القـديس بطرس والقديس جورجيو وآسكانيو" وكان أي واحد من غير هؤلاء جميعاً سيخشاه لو انتخب للبابوية إلا "روهان" والكرادلة الأسبان لأن الأسبان يخشونه لما بينه وبينهم من صلات والتزامات أما "روهان" فقد كان على قرابة بالملك وله نفوذ عظـيم ولهـذه الأسباب كان على الدوق أن ينصب في كرسي البابوية واحد مـن الأسـبان، وإن لم يستطع كان عليه أن يوافق على "روهان" وليس على القديس بطرس إن من يظـن أن المنفعة الحديثة تمحو أثر الإساءة القديمة من نفوس العظماء يخطئ خطأ جسيماً، ولهـذا فإن الدوق قد أخطأ في هذا الاختيار، وكان هذا الخطأ هو سبب هلاكه التام.

الفصل الثامن

حول من وصلوا لمنصب الأمير بالخديعة

بما أنه لا تزال هناك طريقتان للوصول إلى الإمارة دون الحاجة لحسن الطالع أو استخدام القدرات، ولا ينبغي أن نهمل هاتين الطريقتين إن إحدى الطريقتين يمكن مناقشتها بتعمق لو أننا نتحدث عن الجمهوريات وهذا عندما يحصل فرد من عِلية القوم على مركز الإمارة باستخدام أساليب حقيرة ومشينة، أو عندما يصبح أحد المواطنين أميراً على دولته التي يعيش فيها بناءً على رضا من المواطنين وعندما أتحدث عن هذه الطريقة، سأعطي لسمو الأمير مثالين أحدهما قديم، والآخر حديث دونما توضيح لميزا ما، حيث إن مجرد ذكرهما سيكون كافياً لمن يضطر لمحاكما ما.

لم يبزغ نجم "أجاثوكل الصقلي" من بين عِلية القوم ليعتلي عرش "سراكوزا" بل إنه جاء من قاع أقل طبقات المجتمع فهو ابن صائغ فَخار، وقد عاش حياة بالغة التعاسة خلال فترات حياته المختلفة وكان ذا جسد كبير وعقل مستنير ودهاء شديد وعندما انضم إلى صفوف الجيش تدرج فيه بسرعة، ثم قرر أن يصبح أميراً على "سراكوزا" بالقوة، ودون انتظار لأي خطوات دستورية متبعة في الجمهورية آنذاك فاتفق مع "هاميلكار القرطاجي" الذي حارب معه في غزو "صقلية" ، ثم استدعى مجلس الشيوخ في "سراكوزا" كما لو كان سيشاورهم في أمر من الأمور الهامة التي تتعلق بالجمهورية وأمر باغتيال جميع أعضاء مجلس الشيوخ، وجميع من حضر الاجتماع من عِلية القوم والأعيان ثم نصب نفسه أميراً بعد قتلهم دونما أي عصيان مدني ورغم أنه تعرض للغزو والحصار مرتين من جيوش "قرطاجنة" إلا أنه استطاع الدفاع عن المدينة، كما أنه استطاع أيضاً أن يغزو بجزء من جيشه بلاداً في شمال إفريقيا ثم يعود منها بجنوده ليرفع الحصار عن "سراكوزا" كما أنه أوصل "القرطاجنيين" إلى وضع محرج جداً جعلهم مضطرين إلى التحالف معه تاركين له حكم صقلية وعندما نتناول أعمال هذا الرجل

وصفاته لن نجد فيها أي دور واضح لحسن الطالع وذلك لأنه –كما أسلفنا- لم يـصل بفضل أي شخص ساعده ولكنه تدرج فقط في المناصب العـسكرية، وواجـه آلاف الصعوبات والمخاطر إلى أن وصل إلى منصب الأمير الذي حافظ عليـه فيمـا بعـد بشجاعة وتضحيات كثيرة لكن قتل المواطنين لا يعتبر من الفضائل، كما أن التغريـر الأصدقاء، وفقدان العقيدة، والرحمة، والدين يمكن أن تصل بنا إلى القوة وليس إلى ا د وإذا كانت فضائل "أجاثوكل" المتمثلة في شجاعة في مواجهة الأخطار وعظمته عنـد مواجهة المشكلات ترفعه إلى مصاف القادة الناجحين، فإن قسوته وبربريته وانعـدام الإنسانية عنده وأعماله الوحشية التي لا تحصى لا ترفعـه إلى مـصاف المـشاهير ولا نستطيع أن نقول: أنه قد وصل إلى ما وصل إليه بالفضائل، أو بحسن الطالع.

وفي عصرنا الحالي، وعند تنصيب البابا "الإسكندر السادس" ، كان "أولفرتـو دافرمو" طفلاً صغيراً يتيماً في رعاية خاله "جيوفاني فوجلياني"، وقد رعاه خاله ورباه، ثم أرسله في ريعان شبابه ليعمل كجندي ضمن قوات "باولو فيتلي" وذلك كلي يتمكن – بعد حصوله على التدريب المناسب- من الوصول إلى رتبة عسكرية عالية وبعد وفـاة "باولو" حارب "أولفرتو" تحت إمرة أخيه "فيتلوزو" وخلال فترة زمنية قصيرة وبسبب ذكائه الحاد ونشاطه الجسدي والعقلي أصبح أحد قادة القوات لكنه كان يعتقد أنه من العبودية أن يعمل تحت إمرة آخرين فقرر أن يكون أميراً على مسقط رأسه "فيرمـو" وأن يحتلها بمساعدة أهلها الذين فضلوا العمل تحت إمرته من أجل تحرير مدينتهم،كما ساعده أيضاً "البنادقة" فكتب رسالة إلى خاله "جيوفاني فوجلياني" قال له فيها: إنه بعد أن تغرب سنوات عديدة عن مدينته يود العودة إليها لأنه يريد أن يراه ويرى المدينـة، حتى يتمكن من تفحص أحوالها قدر الإمكان ولأنه قد كافح من أجـل الوصـول إلى ا د، لذلك فإن مواطنيه يجب أن يعرفوا كيف أنه لم يضيع وقته هبـاء ا ـذلك فإنـه سيصطحب معه مائة من الفرسان وهم من أتباعه وأصدقائه وطلب من خاله أن يعلـن ذلك على الملأ حتى يستقبله مواطنو "فيرمو" استقبالاً يكرمه باعتباره أيضاً تلميذاً لهذا

الخال ولم يخفق الخال "جيوفاني" في عمل ما يلزم لاستقبال ابن أخته وفرسانه أعظم استقبال، فاستقله أهالي "فيرمو" أعظم استقبال وآواه هو فرسانه في بيته وبعد أن مضت عدة أيام أعد فيها خطة الخديعة دعا "أولفرتو" خاله "جيوفاني" وكل عِلية القوم في "فيرمو" إلى مأدبة كبيرة وبعد الطعام والشراب والتسلية المعتادة في مثل هذه المآدب، تطرق "أولفرتو" ببراعة شديدة للحديث عن عظمة البابا "الإسكندر" وابنه قيصر "بورجيا" وقد استجاب خاله والحضور للحديث إلا أنه هب واقفاً وقال فجأة "بورجيا" إن الحديث عن مثل هذه الأمور يجب أن يكون في مكان مناسب وانسحب إلى غرفة جانبية تبعه إليها خاله "جيوفاني" وجميع الحضور وما أن جلسوا في مقاعدهم حتى اندفع إليهم الجنود من أماكن احتفائهم وقتلوا الجميع بما فيهم "جيوفاني" وبعد هذه المذبحة ركب "أولفرتو"حصانه مع جنوده وسار عبر شوارع المدينة إلى قصر الحاكم وحاصره وأجبره على تكوين حكومة نصب نفسه أميراً عليها وكان جميع من قتلهم يستطيعون إفساد هذا الموقف لو ظلوا أحياء كما أنه حصن نفسه بالجديد من الأنظمة سواء المدنية أوالعسكرية بطريقة تجعله لا يأمن على نفسه فقط خلال عام واحد يقضيه في مدينة "فيرمو"، ولكنه يصبح أيضاً مصدر خوف لجميع جيرانه وقد كان من الصعب الإطاحة به لولا أن قيصر "بورجيا" قد خدعه عندما سيطر على الأورسيني وسنجاجليا حيث قبض عليه واحد مما ارتكبه من فضاع وأعدم هو و"فيتلوزو" الذي علمه الوحشية والتجبر.

وقد يتعجب البعض من أن أجاثوكل والآخرين من أمثاله يستطيعون البقاء في بلادهم لعدة سنوات بعد العديد من الجرائم الوحشية، ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد الأعداء من الخارج دون أن يثور عليهم رعاياهم، على الرغم من أن غيرهم لم يستطيع الحفاظ على منصبه في وقت السلم وليس وقت الحرب وأنا أعتقد أن ذلك سببه القدرة على استعراض القسوة بطريقة مناسبة فحسن ارتكاب الجريمة القاسية(إذا كان بإمكاننا استخدام كلمة "حسن" عند الحديث عن النوايا الشريرة) يمكن من جني

الناشر: مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع – ترجمة أكرم مؤمن - طباعة: علي محمد المسلمي- البريد الالكتروني: ali_hantool@hotmail.com

الثمار فيما بعد أما عندما ترتكب هذه الفظائع بطريقة خاطئة فإ ا تزيد من أعدد مـن يعارضوننا مع مرور الوقت، ولا تقضي عليهم ومن يستخدم هذه الطريقة الأولى مثل أجاثوكل يمكنهم علاج أخطائهم بطريقة ما أما بالنسبة للآخرين الـذين يـستخدمون الطريقة الثانية فمن الصعب عليهم الحفاظ على أنفسهم واستمرارهم.

ومن الملاحظ إذن أنه عندما نستولي على ولاية، فإنه يجب علـى المنتـصر أن يخطط لجميع جرائمه مرة واحدة حتى لا يضطر للعودة إليها في وقت آخر. وأن تكون له قدرة على اتخاذ تغييرات جديدة تؤكد للعامة الحرص على مصلحتهم ليكسبهم إلى صفه ومن يفعل غير ذلك عن جبن أو بناءً على نصيحة من حوله سيظل من المفروض عليه أن يقف وفي يده الخنجر، ولن يتمكن أبداً من الاعتماد على رعاياه، لأ ـم لـن يثقوا به، بسبب كثرة مشكلاته وأخطائه وإذا كانت الأخطاء لابد واقعة فيحـسن أن تكون دفعة واحدة حتى تكون أقل تأثيراً من واقعات متعددة تبقى آثارها أمـا المزايـا فيجب إعطاؤها للرعايا جرعة جرعة حتى يستمتعوا ا ويشعروا بفائد ا وقبـل كـل شيء لابد للأمير ا، يعيش وسط رعيته بطريقة لا يؤثر فيها حدوث حادث له فيخرجه عما يخطط سواء كان حادثاً مؤلماً أو حادثاً سعيداً وذلك لأنك لا تكون في هذا الموقف موفقاً إذا استخدمت الشدة، وإن فعلت الخير لن تجني من ورائه أي فائدة لأنه سيؤخذ على أنه اضطرار وبلا أي فائدة.

الفصل التاسع

حول الإمارات المدنية

ونصل الآن إلى الحالة التي يصبح فيها المواطن أميراً بناءً على رغبة أقرانه من المواطنين، وليس بالجريمة أو العنف الذي لا يحتمل، وقد يسمى هذا النوع بالإمارة المدنية وهو نوع لا يمكن الوصول إليه لا بحسن الطالع، ولا بالقدرات، ولكنه يعتمد فقط على مكر يسانده حسن الطالع، وذلك لأن الإنسان يبلغ هذا المركز، إما برغبة من جموع الشعب، أو بتأييد من الطبقة الأرستقراطية، وهما جماعتان توجدان في كل مدينة أياً كانت، وهما متعارضتان بالطبع وهذا التعارض نتيجة لمحاولة عامة الشعب تحاشي تعسف الطبقة الأرستقراطية، ومحاولة هذه الطبقة أن تسيطر على الشعب وتبطش به وينتج عن هاتين المصلحتين المتعارضتين في المدينة نتيجة واحدة من ثلاث نتائج: إما حكم مطلق أو حكم حر أو فوضى حيث يتمكن الشعب أو الطبقة الأرستقراطية من تكوين الحكومة الأولى، والأمر يتوقف على ما يواتي من فرص لأي من الطرفين فالنبلاء عندما يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحد منهم ليصبح أميراً يمكنهم أن يحققوا مشروعاتهم في ظل سلطانه ومن جهة أخرى يسعى الشعب إلى أن يرفع من بينه أميراً حينما لا يستطيع مقاومة النبلاء وهو أمير يصنعه الشعب ليحتمي بسلطته ومن يصبح أميراً بمساعدة النبلاء يعاني من مشكلات كبرى في سبيل الحفاظ على سلطانه أكثر من الذي يرفعه الشعب كما أنه سيجد حوله كثيرين يعتبرون أنفسهم أنداداً له ومن هنا فهو لا يستطيع قيادة الآخرين وتوجيههم كما يريد أما من يرفعه الشعب إلى منصب الأمير، فإنه يجد نفسه متفرداً والجميع يسعى لخدمته عدا نفر قليل كما أن المعاملة العادلة لن ترضي عنه طبقة النبلاء في حين أن نفس الأمر سيرضي عامة الشعب بسرعة فالعامة يرضون بالعدل بينما النبلاء يرغبون في التعسف والبطش وإضافة إلى ما سبق فإن الأمير لن يستطيع أن يتأكد من أن شعبه

يكرهه لكثرة العدد لكنه من الممكن أن يعرف ذلك في طبقة النبلاء لأنهم قلة وأسوأ ما يمكن أن يحدث للأمير من شعب يكرهه هو أن يتخلى عنه، لكن النبلاء ينشطون لمقاومته عندما يعادونه، بالإضافة إلى تخليهم عنه ولما كان النبلاء بعيدي النظر أكثر من الشعب وأشد منه مكراً فهم دائماً قادرون على تخليص أنفسهم بالانضمام إلى من يتوقعون له الغلبة في الوقت المناسب والأمير مضطر للحياة بين أفراد الشعب دون حاجة للطبقة الأرستقراطية، فبإمكانه أن يوجدها، أو أن يقضي عليها في أي وقت، وأن يحسن من مركزها في المجتمع، أو يجردها منه كما يحلو له.

وحتى أوضح هذا الأمر أكثر أقول: يجب علينا أن نتناول طبقة النبلاء بأسلوبين مختلفين، أي أنهم إما أن يحكموا بطريقة تجعلهم يعتمدون عليك تماماً أو أن يتركوا فإذا ما كانوا محكومين تماماً، ولم يصبهم الجشع فيجب عليك أن تكرمهم وتحبهم أما من يبتعد عنك، فيجب معاملته بإحدى الطريقتين: فإذا كانوا يفعلون ذلك إحجاماً وجبناً فليس لك أن تخشاهم في الضراء، ومن الممكن أن تستفيد من أهل الرأي منهم خاصة، كما أنهم يشرفونك في السراء، أما أولئك المبتعدون عنك لغرض معين، فهذا يعني أنهم ذوو طموحات، وأنهم يفكرون في أنفسهم ولا يكفرون فيك لذا يجب على الأمير أن يحترس منهم وأن يعتبرهم أعداء غير ظاهرين يمكنهم المساهمة في سقوطه وقت الشدة.

ولهذا يجب على أي أمير يرفعه الشعب، وينصبه عليه أن يحافظ على محبته له مهماً كلفه ذلك، وإن كان سيجده أمراً سهلاً لأن الشعب لا يريد شيئاً سوى العدل أما من وصل إلى منصب الإمارة بمساعدة النبلاء وضد إرادة الشعب فعليه أولاً أن يسعى لنيل رضا الشعب عنه وهو أمر سهل المنال لو أنه دافع عن الشعب ولما كان الناس لا ينسون فضل من لا يتوقعون منه إلا الشر، فغنهم سيميلون نحوه بسرعة وسينال تأييدهم أسرع مما لو كان قد ارتفع لمنصب الأمير بمساعدتهم له ويستطيع الأمير أن ينال رضا شعبه بالعديد من الطرق التي تختلف باختلاف الظروف، وهي لا

تخضع لقاعدة ثانية ولهذا فلن أتحدث عنها ولا أستطيع سوى أن أقول: أنه يجب عليه أن يكسب صداقة الشعب، وإلا فلن يجد لنفسه ملاذاً في حالة الخطر.

وقد صمد "نابيس" أمير "إسبرطة" لحصار بلاد اليونان جميعها، وجيش روماني مظفر، ودافع عن وطنه ضدهم وصان بلاده وحين لاح الخطر اكتفى بأن تأكد من ولاء فئة قليلة وما كان ذلك يكفيه لو أن شعبه يكرهه ولا أظن أن أحداً يمكنه أن يخالفني بناء على الحكمة التي تقول: "من يبني على العشب يبني على الطين" وذلك لأن هذه الحكمة يمكن أن تطبق على الفرد العادي الذي يعتمد على الناس، ويقنع نفسه بأنهم سيخلصونه من بطش الأعداء به ففي مثل هذه الحالة يجد الإنسان نفسه مخدوعاً مثلما حدث "لجراكي" في "روما" و"لجورجيو سكالي" في "فلورنسا" فالشعب لا يخدع أميراً يدعم ولايته له بالشجاعة والاستبسال هو قوي القلب، ولا يتوانى عن الاستعداد بكل ما أوتي من قوة، فهو يستطيع أن يستنهض شعبه بعد أن يكون قد أحسن إرساء قواعد الولاية.

ولا يحيق الخطر بهذه الولايات إلا إذا تحول الأمير من حاكم مدني إلى حاكم مستبد مطلق والحكام المطلقون إما أنهم هم القادة، أو أنهم يستخدمون ولاة لهم، ومركزهم في هذا الحالة الأخيرة يكون أكثر ضعفاً، وذلك لأنهم يكونون تحت رحمة من عينوهم من ولاة حيث يستطيعوا تجريدهم من ملكهم سواء عملوا ضدهم، أو خرجوا عن طاعتهم، خاصة إذا حدث ذلك في وقت الشدة وفي مثل هذه الحالات من الخطر لا يستطيع الأمير أن يفرض سلطانه المطلق، وذلك لأن المواطنين لن يستطيعوا طاعة أوامره في حالة الطوارئ وهم من ألفوا تلقي الأوامر من الولاة وسوف يحتاج الأمير دائماً في الظروف الصعبة إلى رجال يمكنه الاعتماد عليهم لأن هذا الأمير لا يمكن أن يعتمد على ما يقطعه الموجودون حوله من رعية في وقت الهدوء والأمن، فالرعايا في حاجة إلى الإمارة وهم مستعدون للإعلان أن حياتهم فداء للأمير، لأن الموت بعيد عنهم ولكن في ساعة العسرة، وحين تحتاج الدولة إلى المواطنين، لن يجد الأمير منهم في ذلك

الوقت إلا القليل وهي تجربة شديدة الخطر ولا تمكن أن تحدث إلا مرة واحدة وعلـى ذلك فإن الأمير الحكيم يجب عليه أن يبحث عن وسائل تجعل رعاياه في حاجة مستمرة إلى حكومته، وحينئذ سيخلصون الولاء له دائماً.

الفصل العاشر

كيف يجب قياس قوة كافة الإمارات؟

هناك أمر آخر من الضروري أن نتناوله، ونحن نبحث عن صفات الإمـارات، وهذا الأمر هو: هل الأمير قادر على أن يحمي نفسه بمفرده عند الحاجة أم أنه في حاجة لحماية غيره دائماً وأنا أعتبر أن الأمراء الذين يستطيعون حماية أنفسهم بمفردهم، هـم من يستطيع منهم أن يجند جيشاً كافياً بسبب وفرة المال والرجال، ولن يقهـرهم أي مغير عليهم أما الأمراء الذين هم في حاجة إلى أن يحميهم غيرهم، فلن يستطيعوا منازلة الأعداء في ميدان القتال، وهم يضطرون للانسحاب على داخل المدن للدفاع عنـها وقد ناقشت الحالة الأولى منذ وقت قصير أما في الحالة الثانية فلا نجد شيئاً نقوله للأمير سوى أن نشجعه على أن يجمع المؤن، ويحافظ عليها ويحسن استخدامها، وأن يحـاول تحصين مدينته، ولا يشغل باله بما يحدث حولها في مدن أخرى أو قرى تابعة وكلما تمكن من تحصين مدينته والإمساك بزمام الأمور فيها كلما تحسب له عدوه وحذر منـه، لأن المقاتلين يخشون دائماً شن العمليات التي يعرفون مدى صعوبتها مقدماً، ولـيس مـن السهل أبداً أن اجم من تكون تحصيناته قوية لاسيما عندما يكون محبوباً من شعبه.

والمدن الألمانية تستمتع بكامل حريتها وتحيط ا أرض وسهول ريفية ضيقة وهي تطيع أمراءها طاعة كاملة عندما يستطيع ذلك والمدينة الألمانية لا تخاف من أميرها ولا من نوابه، وتحصينها جيد جداً لدرجة أن من يرى هذا التحصين يتأكد له أنه ليس هناك أفضل من ذلك فحول كل مدينة يوجد خندق مائي وحصن ومدافع ضخمة، وكـل مدينة ألمانية تحتفظ بطعام وشراب ووقود كاف للمدينة في مخازن عامة إضـافة إلى أن الألمان حتى يحافظون على معنويات الشعب ورضاه يوفرون له الوظـائف بأسـاليب عديدة وخاصة الوظائف الحيوية للمدينة، ويمكن لأبناء الشعب التـربح مـن تلـك

الوظائف لمدة عام كما أن التدريبات العسكرية مستمرة طوال العـام، ولهـا شـهرة واسعة، وهي دائمة الابتكار والتجديد فيما يخص الحفاظ على المدينة.

ومن هذا يتضح أن الأمير الذي يعيش في مدينة قوية ويحبه شعبه لا يمكـن أن يهاجم، ولو هوجم فإن من يهاجمه سيضطر إلى الانسحاب، وهو يجر أذيال الخيبة والعار ولأن عالمنا سريع التغير، فإنه من المستحيل على أي قائد أن يستمر في حصار مدينة ما لمدة عام، ومن يحتج علي بأن الشعب لن يصبر حين يرى العدو وهو يحـيط بالمدينـة ويشعل النار فيما حولها من أمرك خاصة وأن طول الحصار، وتعرضه للمصالح الخاصة للعشب سينسيه أميره وأرد على ذلك بأن الأمير القوي الشجاع عادة ما يتغلب على هذه الصعاب مرة بأن يملأ القلوب بالأمل، ومرة بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو ومرة ثالثة بأن يتأكد من قدرات أولئك الذين يظهرون جرأ م الزائدة أمامه إضافة إلى أن العدو عندما يأتي إلى مدينة بطبيعة الحال يشعل النيران فيما حولها بمجرد وصوله في وقت تكون النفوس فيها لا تزال على حميتها وتتطلع للدفاع عن نفسها، أما عندما تفتر الحمية، ويكون الدمار قد وقع فعلاً وابتلينا بالشرور التي ليس لها علاج، يصبح الجميع في ذلك الوقت أكثر استعداداً للاتحاد مع أميرهم الذي يصبح مديناً لهم بالمعروف فقد أحرقت ديارهم وخربت أملاكهم أثناء الدفاع عنه.

ومن طبيعة الإنسان أن يرتبط بمن يقدم له نعماً وينعم ا عليه وبناءً على ذلك فإن الأمير الحكيم الذي ينظر إلى كافة الأمور بعين قادرة على حسن التقدير لن يكون من الصعب عليه أن يرفع من روح مواطنيه عندما يبدأ الحصار وفي أثنائه لو كان يملك ما يكفي من مئونة وسلاح.

الفصل الحادي عشر

الإمارات الكنسية

لم يبق أمامنا الآن سوى أن نتحدث عن الإمارات الكنسية، حيث تقع غالب صعوبا ا قبل الحصول عليها حيث يتم الحصول عليها بالقدرات الخاصة أو بطريق الصدفة، لكن المحافظة عليها لا تحتاج لكلا الأمرين، وذلك لأ ا محكومة بعادات دينية قديمة وهي عادات قوية وقادرة على أن تجعلها تحتفظ بأمرائها ماداموا قادرين على الحياة ومواصلة الحكم وهو الصنف الوحيد من الأمراء الذين يحكمون ولايا م ولا يدافعون عنها، ولهمن رعايا لا يهتمون م، وعلى الرغم من أ م لا يدافعون عن ولايا م فإ م لا يفقدو ا، ولا يستاء منهم رعاياهم بالرغم من إهمالهم لهم ولا يخطر في بالهم الانفصال عنها ولا يستطيعون ذلك ولذلك فهي الإمارات الوحيدة الآمنة والسعيدة ولكن لأ ا محكومة بالقيم العالية التي لا يستطيع العقل البشري إدراكها، فإني سأمتنع عن الحديث عنها لأن الله هو من يحميها ويحافظ عليها، فمن الحماقة والوقاحة أن نتحدث عنها وعلى أي حال قد يتساءل البعض عن كيفية تمكن الكنيسة من تحقيق هذه المكانة الزمنية القوية في حين أن كل من سبق "الإسكندر السادس" في إيطاليا مهما كان شأنه –وليس الأقوياء منهم فقط- وذلك سواء كان "بارون" أو من السادة النبلاء، لم يقدروها حق قدرها، بينما يخشاها الآن ملك فرنسا الذي كانت الكنيسة قادرة على طرده من إيطاليا، كما كانت قادرة أيضاً على تحطيم قدرات البنادقة ولذلك وعلى الرغم من أن هذا أمر معروف إلا أنني لا أجد غضاضة في تأكيده مرة أخرى.

وقبل أن يأتي "تشارلز" ملك فرنسا إلى إيطاليا، كانت هذه الدولة تحت حكم البابا، والبنادقة وملك نابولي ودوق ميلان والفلورنسيين وكان على الجميع أن يضع نصب عينيه أمرين مهمين، أولهما: أن لا يدخل إيطاليا أجنبي بقوة السلاح، والآخر هو

ألا توسع حكومة من الحكومات الراهنة أملاكها وكان الأمر يتطلب عناية خاصة بالبابا والبنادقة حيث أن كبح جماح البنادقة يتطلب اتحاد جميع الباقين كما حدث عند الدفاع عن "فريرا" كما أن مواجهة البابا تطلبت الاستعانة بالبارونات الرومان وكانوا منقسمين إلى حزبين هما: "الأورسيني والكولونا" وكانت هناك مشاحنات مستمرة بينهما وكانوا دائماً يحملون السلاح على مرأى من البابا، مما أضعف البابوية وجعلها غير ثابتة وعلى الرغم من ظهور بابوات حازمين مثل "سكستس" من آن لآخر إلا أنه لم يتمكن من التخلص من هذه المشكلات سواء بما لديه من قدرات ولا بحسن طالعه وكان سبب ذلك حياتهم القصيرة حيث خلال عشر سنوات التي يحياها البابا في منصبه في المتوسط فإنه قد ينجح بصعوبة في إضعاف أحد الحزبين، وليكن الكولونا مثلاً، ثم يأتي بابا آخر معاد للأورسيني فيسمح ذلك للكولونا بالازدهار مرة أخرى ولا يستطيع البابا التغلب عليهم مرة أخرى.

وقد جعل ذلك من قوة البابا الزمانية أنها لم تحظ إلا بقليل من الاحترام في إيطاليا ثم جاء "الإسكندر السادس" الذي جعلنا نشهد له ودون جميع سابقيه، بأن البابا يمكنه أن يسود بالمال والقوة وجعل الدوق "فالنتين" آلة في يده، كما أحسن استغلال الغزو الفرنسي، وفعل كل ما سبق لي شرحه في أعمال الدوق، وكان لكل ما فعله تأثير على إعلاء شأن الكنيسة رغم أن ذلك لم يكن مقصده بل كان يقصد إعلاء شأن الدوق، فورثت الكنيسة كل ما قام به بعد وفاة الدوق ثم جاء البابا "يوليوس" حيث وجد الكنيسة قوية وتملك كل "رومانا" وقد تم القضاء على جميع بارونات الرومان، كما أن قوة الإسكندر كانت قد دمرت الأحزاب كما أنه وجد البابا مفتوحاً لجميع الأموال بطرق لم تستخدم قبل الإسكندر وهو لم يكتف باستخدام تلك الطرق فقط بل زاد عليها، وصمم على أن يكسب بولونيا ويقمع البنادقة ويطرد الفرنسيين خارج إيطاليا وقد نجح في كل ما أراد، فاستحق الثناء الكبير وذلك لأنه فعل كل ما في وسعه للحفاظ على استمرار قوة الكنيسة وليس من أجل قوة أي شخص بصفة فردية كما

أنه أبقى أحزاب "الأورسيني والكولونا" في الحالة التي وجدهم عليها وعلى الـرغم أن هناك قادة من بينهم كان يمكنهم أن يحدثوا تغييرات إلا أن هناك شيئين قد حافظا على وضعهما الثابت وهما: الأول هو قوة الكنيسة التي: أفزعتهم والثاني هو أنه لم يكن لهم كرادلة يخصو م وهذا هو ما سبب الاضطرابات في صفوفهم وهذه الأحزاب لا ـدأ أبداً إذا كانت لديها كرادلة، مما يثير الفتن والاضطرابات بين البارونات بسبب أطماع الأساقفة ولذلك فقد أدرك قداسة البابا "ليو العاشر" ما للأساقفة من قوة كبيرة ومـن هنا طمح ان يصل بطيبته وفضائله التي لا تحصى إلى ما وصل إليه البابوات الآخـرون من عظمة وجلال، ولكن بقوة السلاح.

الفصل الثاني عشر

حول الأنواع المختلفة للجندية وجنود المرتزقة

وبعد أن نافشنا صفات الولايات بالقدر الكافي، كما تناولت عوامل نجاحها أو سقوطها كما تناولت أيضاً الطرق التي حاول عن طريقها الكثيرون الحصول على مثل هذه الولايات ولا يبقى أمامي الآن سوى أن أتحدث عن وسائل الهجوم والدفاع الـتي يمكن أن تستخدم في كل ولاية وقد سبق لي أن أكدت على أهمية وجود الدعائم القوية التي تساند الأمير وإلا كان القضاء عليه مؤكداً وأهم دعائم كل الإمارات سواء كانت جديدة أم قديمة أم مختلطة هي وجود القوانين الجيدة والأسلحة الجيدة ولا توجد قوانين جيدة دون وجود أسلحة جيدة، فحيثما توجد القوانين الجيدة توجد الأسلحة الجيـدة أيضاً، ولذلك لن أناقش الآن القوانين، وسأتحدث فقط عن الأسلحة.

وأنا أرى أن الأسلحة التي يدافع بها أمير عن ممتلكاته إما أن تكـون أسـلحته الخاصة، أو أسلحة لقوات مأجورة أو أسلحة حلفاء له أو مختلطة وأسلحة المـأجورين والحلفاء بلا فائدة وخطيرة، وكل من يقيم دولته على أسلحة قـوات مـأجورة لـن يستطيع التأكد من قوة وثبات ولايته لأنها قوات مفككة ولها مطامعها الخاصة، وغـير منظمة ولا عهد لها، وهي تبدو قوية أمام الأصدقاء، لكنها جبانة عند مواجهة الأعداء، وهي لا تخشى الله ولا تصون عهدها مع الناس، وسقوطها مرهون بتأجيـل العـدوان عليها وهم ينهبونك في وقت السلم وينهبك العدو في وقت الحرب وسبب ذلك أنهـم لا يجدون دافعاً يدفعهم للبقاء في الميدان سوى الأجور الزهيدة التي لا تجعلـهم علـى استعداد للموت من أجلك فهم مستعدون لأن يكونوا جنودك طالما أنك لـن تقـوم بحرب، ولكن عندما تبدأ الحرب، فإما أن يفروا أو أن يرحلوا معا وأنا لست بحاجة لأن أبذل مجهوداً كي أثبت ذلك، فخراب إيطاليا لم يحدث إلا بسبب الاعتماد لسنوات عديدة على القوات المرتزقة وإن كان بعضهم قد ساعد بعض الأمـراء علـى بلـوغ

السلطة، وقد ظهروا شجعاناً وأقوياء حين كان التنافس بين بعضهم البعض، إلا أ ـم من لم يكونوا كذلك حينما جاءهم الأجنبي، مما أتاح للملك "تشارلز" ملك فرنسا أن يستولي على إيطاليا بأقل جهد ممكن إن من يعلل خراب إيطاليا بسبب الخطايا هو محِق، لكنها ليست خطايانا كما يقولون، وإنما هي خطايا الأمراء التي تحدثت عنها، فنالوا همن أيضاً العقاب.

وسأشرح بالتفصيل عيوب هذه القوات المسلحة المرتزقة، حيث أن الـضباط المرتزقة إما أن يكونوا ذوي كفاءة أو غير أكفاء فإذا كان أكفاء فإنه لا يمكن الاعتماد عليهم، لأ ـم يثبتون لأنفسهم أ ـم عظماء إما بابتزازك وأنت سيدهم أو بالضغط على غيرك لما هو في غير صالحك أما إذا كان الضابط غير كفء فإنه يدمرك تماماً وقد يـرد على إنسان بقوله: إن ذلك ممكن حدوثه سواء كانت القوات من المرتزقة أو من غيرها وأنا أرد عليه بقول: أن القوات يستخدمها أمير أو حاكم الجمهورية وعلى الأمـير أن يتوجه بنفسه إلى موقع القائد، وعلى الجمهورية أن ترسل مواطنيها لهذا الغرض، فـإذا اتضح عجز من أرسل فيجب على الجمهورية أن تغيره أما إذا كان قديراً فإ ـا يجب أن تمنعه من تخطي الحدود المرسومة له بحكم القانون وتـشير التجـارب إلى أن الأمـراء المسلحين والجمهوريات المسلحة هم فقط القادرون على تحقيق تقدم ملموس في حين لا تقدم القوات المرتزقة أي شيء سوى المضرة كما أن الجمهورية المسلحة لا تخضع لحكم مواطن من أبنائها بشهولة كما يحدث في جمهورية مسلحة بقوات أجنبية.

وقد كانت "روما" و"إسبرطة" مسلحين جيداً وأحراراً لقرون طويلة كما كان السويسريون مسلحين جيداً ونعموا بالحرية التامة ولدينا مثال من العـصور القديمـة للجنود المرتزقة وهم القرطاجنيون الذين بطش ـم جنودهم المأجورون بعد انتهاء أول حرب لهم مع الرومانيين وذلك في حين أن القيادة كانت ما تزال لأبناء قرطاجنة كما أن أهل طيبة قد جعلوا "فيليب المقدوني" قائداً لقوا ـم بعد موت "أبامهنوداس" وقـد جردهم من حريتهم بعد أن تم له النصر وقد اسـتأجر أهـل ميلانـو "فرانشـسكو

سفورتسا" لمحاربة البنادقة عندما مات الدوق "فيليب" وعندما تغلب على البنادقـة في معركة "كارافاجو" تحالف معهم ليقمع أهل ميلانوا، وهم من كان يعمل في خدمتـهم وقد عمل أبوه في خدمة "جويفانا" ملكة نابولي، ثم تركها فجأة وهي بدون سلاح مما اضطرها لأن ترتمي في أحضان ملك "الأرجون" حتى لا تفقد مملكتها وإذا كان البنادقة والفلورنسيين ق وسعوا ممتلكا م فيما مضى باستخدام القوات المرتزقة، ولم يحدث أن ولي القادة أنفسهم كأمراء بل استمروا في ولائهم ودفاعهم عن الأمراء، وأنـا أرى أن الصدفة قد خدمت الفلورنسيين في تلك الحالة، حيث لم ينقلب علـيهم القـادة ذوو الكفاءة، ولقي بعضهم الآخر معارضة، بينما وجهت مجموعة ثالثة مطامعها إلى وجهـة أخرى إن من لم يقم بالانقلاب هو السير "جون هوكوود" ونحن لا نستطيع الحكم على ولائه مادام لم يحقق نصراً والجميع يعرف أنه لو حقق نصراً فربما وقعت "فلورنسا" تحت رحمته كما أن "البراتشسكي" و"سفورتسا الأب" صد بعضهم البعض علـى الـدوام فكانوا عقبات دائمة أمام بعضهم البعض، فوجه "سفورتسا" أطماعـه إلى لومبارديـا، وبينما توجه "براتشو" بأطماعه إلى الكنيسة ومملكة "نابولي".

ولنتناول ما حدث منذ فترة وجيزة حين نصب الفلورنسيون "باولو فيتللـي" قائداً عليهم، وهو رجل حكيم جداً ارتفع إلى أعلى المراتب بعدما كان يشغل منـصباً عادياً ولا يمكن أن ننكر أنه لو تمكن من الاستيلاء على "بيزا" لوجب على "فلورنسا" أن تحافظ على صداقته و تم بذلك بشدة وذلك لأنه لو حارب في صفوف أعـدائهم فلن يجدوا سبيلا لمقاومته ولو كانوا قد احتفظوا به لكان عليهم أن يطيعوه أما بالنسبة "للبنادقة" فإذا تناولنا ما حققوه من تقدم فسنجد أ م قد نجحوا وحققوا مجـداً طالمـا اعتمدوا على قوا م الخاصة، كما أ م حاربوا ببسالة وشجاعة بالاعتماد على أبنـاء الطبقة الأرستقراطية وأبناء العامة حتى بدءوا حرو م البرية وتخلوا عن هـذه الميـزة واتبعوا العادات الإيطالية وعند بدايتهم لتوسعهم البري لم يكن لعيهم أن يخـافوا مـن قوادهم، فرقعة الأرض ليست كبيرة وصيتهم لم يكن ذائعاً ولكن –مثلما حدث تحـت

قيادة "كارمينولا" –بعد أن اتسعت أملاكهم، وأدركوا خطأهم، ورأوا فتور همته بعد أن هزم دوق ميلانو، و، رأوا ألا يقوموا بأي غزو جديد تحت إمرته فيما بعد ولم تكن لديهم رغبة في طرده، ولا يستطيعون ذلك، خشية فقدان ما قد تمت السيطرة عليه فاضطروا إلى إعدامه حتى تطوى صفحته وعندئذ أصبح "بارتولوميو دابرجاموا وروبرت توراسان سفرينو والكونت دي بتليانو" وأمثالهمن قادة لهم، وكانوا يخشون أن يحققوا لهم الخسارة بدلاً من النصر، فخسروا في يوم واحد ما كسبوه بصعوبة شديدة في ثمانية قرون كل ذلك بسبب أننا نستطيع أن نحقق بعض التوافه باستخدام القوات المرتزقة لسنين عديدة، لكن ما تسببه من خسائر يأتي مفاجئاً وغريباً ولما تكرر ذلك في إيطاليا التي تحكمت فيها القوات المرتزقة لسنين طويلة، فسوف أبحث عن صورة أدق وأكثر تفصيلاً تمكننا من تناولها ودراسة أصولها وتطورها.

ولابد أن نعرف أن إيطاليا كانت في تلك السنوات الأخيرة مقسمة إلى ولايات صغيرة، عندما بدأت الإمبراطورية في التفكك بسرعة، وأخذ البابا يتمتع بنفوذ أوسع فيما يتعلق بأمور الدنيا وثارت المدن الرئيسية الثلاث على أمرائها المقربين من الإمبراطور وشجعت الكنيسة هذا الأمر حتى تزيد من سلطانها الزمني وفي مدن أخرى كثيرة أصبح واحداً من السكان أميراً وهكذا سقط غالب إيطاليا تماماً في قبضة الكنيسة وبعض الجمهوريات القليلة ولما كان القساوسة والمواطنون العاديون لا يستطيعون حمل السلاح، فغنهم قد أخذوا في استئجار جنود أجانب، وأول من استخدم هذا الأسلوب من الجندية هو "البرجيو دا كومو" في "رومانا"، حيث تربى كل من "برتشو" و "سوفورتسا" اللذين كانا أصحاب الكلمة الأولى في إيطاليا على أيدي المرتزقة ثم تبعهم جميع قادة الجيوش في إيطاليا حتى اليوم، وكان من نجاحاتهم أن تغلب شارل على إيطاليا ثم افترسها لويس وطغى فيها "فرناندو" وبغى، وأهانها السويسريون وكان أسلوب هؤلاء المرتزقة هو أن يزعزعوا الثقة في المشاة حيث كان من السهل على أفراد الشعب أن ينتموا للمشاة، وكان المرتزقة دائماً من الفرسان الذين لا وطن

لهم ويعيشون على ما يكسبون، وكاد الأمر أن يقتصر تماماً على الفرسان، فقليل منهم كان يضفي الهيبة وخلع على الجيش الشرف والمهابة وقد انحدرت الأمور إلى درجة أننا كنا نجد أن هناك ألفين فقط من المشاة في جيش تعداده عشرون ألف جندي وقد أرسى المرتزقة كل القواعد والتقاليد التي تخلصهم من أي مشقة أو خوف وتقلل من المخاطر التي قد يتعرضون إليها حفاظاً على أرواحهم وأرواح جنودهم من أمثلة ذا ـ لك أ ـ م كانوا يأسرون الأسرى دون أن يطلبوا عنهم فدية، ولا يهاجموه التحصينات العسكرية ليلاً، ولم يحفروا الخنادق حول معسكرا م ولم يحاربوا في الشتاء ولم يضعوا المتاريس لقد أجازت قوانينهم العسكرية لهم كل ذلك، وكان قانوناً مبتكراً يحاول أن يجنبهم المخاطر والمتاعب، فانحدروا بإيطاليا إلى غياهب العبودية ونزلوا ا إلى الحضيض.

الفصل الثالث عشر

حول القوات المعاونة والمختلطة والوطنية

عندما يطلب أحدهم من جاره أن يأتي للدفاع عنه بقواته فهذه القوات تسمى قوات معاونة، وهي عديمة النفع مثل القوات المرتزقة، وقد حدث ذلـك في العـصر الحديث عندما لاحظ "جوليوس" إخفاق قواته المرتزقة في غزو "فيريـرا"، فلجـأ إلى استخدام القوات المعاونة واتفق مع "فرناندو" ملك أسبانيا على أن يساعده بقواته وقد تكون هذه القوات جيدة في حد ذا ا، لكنها دائماً مصدر خطر على من يستعيرها لأ ا إذا خسرت المعركة فإنك تكون قد هزمت أما إذا كسبتها فإنك ستبقى أسيراً لتلـك القوات وعلى الرغم من أن التاريخ القديم مليء بالكثير من هذه الأمثلة فإن لن أترك هذا المثال وهو مثال البابا "جولوس الثاني" لأنه مثال حديث حي في الأذهان ولـيس هناك سياسة خرقاء قليلة الحكمة مثل السياسة التي اتبعها وذلك لأنه بسبب رغبته في السيطرة على "فريرا" قد وضع نفسه بالكامل تحت سيطرة الأجنبي ولكن لحسن الحظ ظهرت قوة ثالثة ساعدت على منعه من جني الثمار المرة لسياسته الفاسدة وذلك لأنه عندما هزمت قواته المعاونة في "رافينا" ض السويسريون وردوا المنتصر، وذلك دون أي توقع منه أو من الآخرين، ونجا بذلك من أن يقع في أسر عدوه الذي هرب بالفعل ولا في أسر قواته المعاونة لأ ا هزمت على يد قوات جهة ثالثة كما أن الفلورنـسيين الذين كانوا بلا سلاح بالمرة قد استأجروا عشرة آلاف جندي فرنسي للهجوم علـى "بيزا"، وهذا يعتبر مخاطرة كبرى لم يمروا ا من قبل خلال سنوات كفاحهم وحـشد إمبراطور القسطنطينية عشرة آلاف تركي في اليونان لمواجهة جيرانه، لكنهم لم يرحلوا بعد الحرب، وكانت هذه هي بداية لمرحلة استبعاد لليونانيين من جانب مـن جـاءوا لمناصر م.

إذن على من لا يريد أن ينتصر أن يعتمد على هذه القوات المعاونة التي تزيد خطورتها قليلاً على خطورة القوات المرتزقة، فبوجودهم سيكون الخراب شاملاً، وذلك لأنهم متحدون داماً، وولاؤهم لآخرين وليس لك بينما تحتاج القوات المرتزقة إلى وقت وفرصة مناسبة حتى تتمكن من الإضرار بك، وذلك لأنها لا تشكل تكويناً واحداً ولأنها تستلم رواتبها منك ومرتبطة بك وعلى ذلك فإذا جعلت طرفاً ثالثاً هو القائد فإنه لن يستطيع بسرعة أن يتمكن من الحصول على المكانة التي تؤهله لأن يضر مصالحك وخلاصة القول هو: أن قصارى الخطر المتمثل في القوات المرتزقة يكمن جبنها وتخاذلها عن القتال، لكن القوات المعاونة خطورتها تنبع من شجاعتها.

والأمير المحنك إذن يتجنب دائماً هذين النوعين من القوات وله مصادره الخاصة للقوات، وهو يفضل الهزيمة على يد قواته الخاصة عن النصر على يد قوات الآخرين فهو لا يعتقد أن هذا الذي تحققه القوات الأجنبية سيكون نصراً حقيقياً وأن لا أتردد في أن أذكر مثال قيصر "بورجيا" وأعماله فذا الدوق دخل إلى "رومانا" بقوات معاونة وقاد قوات تتكون بالكامل من جنود فرنسيين تمكن بهم من السيطرة على "أيمول" وفورلي، ولكنه لم يأمن جانبها فلجأ إلى القوات المرتزقة لتجنب المزيد من الخطر، فاستأجر "الأورسيني والفيتلي"، ثم اكتشف بعد ذلك عدم قدرته على الثقة فيهما بعد أن جربهما وتأكد من أنهما غير مخلصين وخطيرين، فبطش بهما واعتمد على جنوده فقط مما زاد من شعبيته زيادة مستمرة، ولم يصل إلى مثل هذه الشعبية الكبيرة التي وصل إليها إلا عندما لاحظ الجميع أنه الآمر الوحيد لقواته.

لا أريد أن أترك الأمثلة الحديثة من تاريخ إيطاليا، وأريد الآن أن أتحدث عن "هيرو" سيراكوزا وقد سبق لي ذكره هذا الرجل وبمجرد أن جعله السيراكوزيين على رأس الجيش –كما سبق أن قلت- لاحظ عدم فائدة الجيش المنظم على طريقة قواتنا الإيطالية المأجورة، ولما رأى أن الخلاص منهم أو الاحتفاظ بهم أمر غير مأمون، فقد قطع أوصال هذا الجيش وقسمه إلى أجزاء صغيرة واعتمد منذ ذلك الوقت على خاصة

وليس على قوات الآخرين كما أنني سأستشهد أيضاً بقصة رمزية من العهد القديم، وهي توضح هذه النقطة بدقة فعندما عرض داود نفسه على "شاؤول" لكي يذهب وينازل "جوليات" بطل فلسطين فسلحه "شاؤول" بسلاحه الشخصي كي يشجعه على القتال لكن داود بعد أن جرب السلاح بنفسه رفضه قائلاً: إنه يستطيع استخدامه بطريقة جيدة، ولذلك فقد فضل أن يواجه عدوه بمقلاعه وخنجره وباختصار فإن استخدام أسلحة الآخرين غير مجد أيضاً وقد تعوقك، أو تشل حركتك أو تشكل عبئاً عليك إن الملك "تشارلز" السابع أبو الملك لويس السادس قد اعتقد أن حسن الطالع والشجاعة كانا السبب في تحرير فرنسا من الإنجليز، وقد لاحظ ضرورة التسلح باستخدام قواته الخاصة وأسس نظاماً في مملكته يعتمد على رجال يحملون السلاح وعلى كتائب المشاة وفيما بعد ألغى ابنه الملك لويس كتائب المشاة واستأجر جنوداً سويسريين، وكان هذا هو الخطأ الذي تبعته أخطاء أخرى أدت إلى تعرضه للخطر كما هو واضح الآن وذلك لأنه باعتماد على السويسريين ومنحهم هذه السمعة أحبطت فرنسا معنويات كل قواتها الخاصة، فقد تم إلغاء المشاة واضطر الباقي من القوات إلى العمل مع الأجانب لكسب تعاونهم ثم تعودوا على الحرب مع القوات السويسرية، وظنوا أنهم لا يمكنهم النصر بدونهم وأصبح الفرنسيون في وضع لا يمكنهم من القضاء على السويسريين، ولا يمكنهم من مواجهة الآخرين دون الاعتماد عليهم وبذلك أصبحت القوات الفرنسية من النوع المختلط، جزء منها من المرتزقة، وجزء من القوات الوطنية وإذا ما تناولناها بصفة عامة فإننا سنجدها أفضل كثيراً من المكونة بالكامل من المرتزقة أومن القوات المعاونة لكنها بالطبع أقل من القوات الوطنية.

ولعل هذا المثال كاف في حد ذاته، لأن فرنسا كانت ستظل منيعة لو حاولت الإبقاء على نظام "تشارلز" العسكري أو تطويره لكن الرجال الذين يفتقدون الحكمة عندما يبدءون أمراً جديداً يجنون ثماره الطيبة لا ينتبهون إلى السم الموجود بداخله، وذلك يشابه ما أشرت إليه سابقاً.

ولذا فالأمير الذي يخفق في أن يلاحظ مشكلات إمارته في مهـدها لا يمكـن وصفه إلا بأنه غير حكيم، فالحكمة توهب للقليلين فقط. وإذا ما نظرنـا إلى أسـباب الا يار الأول للإمبراطورية الرومانية فسنجد أنه كان بسبب استئجار قوات مرتزقة من "الغوت"، لأنه منذ ذلك والوقت بدأت القوات الرومانية في الضعف وسقطت عـن الإمبراطورية جميع مزاياها وذهبت إلى "الغوت".

لذلك فإني أ ي حديثي بالتأكيد على أنه لا سلامة لأمير يحتمي بقوات مسلحة غير قواته الوطنية فبدون قواته المسلحة الوطنية يتوقف مصيره على حسن الطالع فقط، وسيظل بلا وسيلة يملك ا الدفاع عن نفسه حين تضطرب الأحـوال. لقـد قـال الحكماء: "لا يوجد ما يزعزع عند البشر أكثر من ولايات تدعمها الشهرة ولا تدعمها قوا ا الوطنية" وقوات الأمير الوطنية تتكون إما من الرعايا أو من المواطنين، أو مـن أتباعه هو، وأي قوات أخرى غير هؤلاء هي إما أجير مرتزق أو من القوات المعاونـة ومن السهل أن تعرف كيفية إدارة القائد للجيوش الوطنية لو أننا درسنا طرق الأمراء الأربعة الذين ذكر م، وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي نظم ا فيليب – أبو الإسكندر الأكبر- وكثير من الحكام والجمهوريات قوا م وبعد هـذه الأمثلـة لا توجد حاجة لتناول الموضوع بالتفصيل.

الفصل الرابع عشر

واجبات الأمير فيما يتعلق بالقوات المسلحة

ينبغي للأمير ألا تكون له غاية أو فكرة سوى الحرب، ونظامها وطرق تنظيمها، وألا يتخذ لدراسته موضوعاً آخر سواها فهذا هو الفن الوحيد اللازم لمن يتولى القيادة فهو فن له من المزايا ما يكفي للمحافظة على هؤلاء الذين ولدوا أمراء والإبقاء عليهم في مناصبهم كما أنه يساعد الرجال العاديين على بلوغ مرتبة الإمارة ومن ناحية أخرى يمكننا أن نرى أن الأمراء يفقدون ولاياتهم عندما يفكرون في مظاهر الترف أكثر من تفكيرهم في الأسلحة والسبب الأول لضياع الولايات هو إهمال هذا الفن فهي تكتسب عن طريق إجادة هذا الفن.

وقد توصل "فرانسشكو سفورتسا" بحسن تسلحه إلى أن أصبح دوق ميلانو، وقد كان فيما قبل فرداً عادياً وقد انحدر أبناؤه إلى أن أصبحوا أشخاصاً عاديين بعد أن كانوا أمراء، وذلك لابتعادهم عن متاعب الحروب ومشقتها وذلك لأن من بين عيوب عدم التسلح الجيد هو أن الفرد يصبح بلا قيمة وهذا أمر لابد على الأمير أن يتجنبه وهذا ما سنشرحه فيما بعد فشتان ما بين رجل مسلح ورجل أعزل، ومهما كان الأمر فلن نرى رجلاً مسلحاً يطيع رجلاً أعزل، وهو بكامل إرادته، ولن نر أعزل سالماً بين أتباعه المسلحين فمن المستحيل أن يعمل الاثنان معاً في سلام، لأن أحدهما محتقر والآخر كثير الشك ولهذا فمن المستحيل أن يحترم الجنود أميرهم الذي يجهل الشئون الحربية، أو أن يكونوا محل ثقته، فضلاً عن المشكلات الأخرى التي ذكرناها قبل قليل.

ولذلك لابد للأمير ألا ينسى التدريب العسكري، فهو يتدرب في وقت السلم أكثر مما يفعل في وقت الحرب، وهذا ممكن تطبيقه بطريقتين إحداهما عملية والأخرى نظرية ومن الناحية العملية، يجب عليه بجانب تنظيمه لقواته وتدريبه لهم أن يشغل نفسه بالصيد باستقرار، فهذا أمر يعود جسده على المشقة والتعب، كما أنه يجعله يدرس

طبيعة البلاد في نفس الوقت، فهذه منحدرات الجبال وهنا تنفرج الوديـان، وهنـاك مواقع السيول، ويفهم طبيعة المستنقعات والأ ار، وعليه أن يلم بجميع هـذه الأمـور إلماماً تاماً ولهذا العلم فوائد من ناحيتين: أولها: أن الإنسان يعرف عن بلاده كل شـيء مما يتيح له أن يدافع عنها بصورة أفضل، كما أن معرفته لطبيعة إقليم بلاده توصله إلى طبيعة أقاليم أخرى والأمير الذي لا يملك هذه الصفات يفقد أو ضروريات القائد فهذه المعارف تعلمه كيف يلقى عدوه، وكيف يقيم المعسكرات؟ وأين يقيمها؟ وكيف يضع الخطط للمعارك؟ وكيف يحاصر المدن ويظفر ا.

ومن بين الصفات الحميدة التي وصف ا الكُتاب "فيلوبومين" أمير "الآخيلين" من بين أمراء آخرين، هي أن قالوا عنه: إنه لم يكن يفكر وقـت الـسلام سـوى في الشئون العسكرية وكثيراً ما كان يقف بين أصحابه خارج المدينة ويـسألهم إذا كـان العدو فوق هذا التل ووجدنا أنفسنا هنا مع قواتنا، فأي منا ذو وضع مميـز؟ وكيـف يمكننا الاقتراب من العدو مع الحفاظ على نظامنا؟ وإذا أردنا الانسحاب .. ماذا يجب أن نفعل؟ وإذا انسحب العدو فكيف يمكننا أن نتبعه؟ ثم كان يحدثهم أثناء السر عـن كل الاحتمالات التي يمكن أن تحدث للجيش وكان يستمع لآرائهم ويعطـيهم رأيـه ويؤكده بالبراهين لذلك فهو لم يتعرض لأي حادث لم يكن يتوقعه أثناء قيادته للجيوش وذلك بفضل هذه المناقشات الدائمة.

أما فيما يخص تدريب العقل فإن على الأمير أن يقرأ تاريخه، ويـدرس أعمـال عظام الرجال، ليرى كيف كانوا يتصرفون في الحروب، ويدرس أسباب انتـصارا م ومسببات هزائمهم، حتى يستطيع أن يسير على درب المظفرين ويتحاشـى أن يلقـى هزيمة تماثل هزائم المقهورين منهم وقبل كل شيء يجب عليه أن يسير على درب عظماء الماضي، الذين كانوا يتخذون هم بدورهم من العظماء الذي سبقوهم قدوة لهم فيقال إن الإسكندر الأكبر قد قلد أعمال "أخيلس" واقتدى "اسكيبيو" بكورش كما أن كل من يقرأ حياة "كورش التي سجلها "اكسينوفون" سيتضح له كيف أن "سكيبيو" قـد

اقتدى "بكورش" في حياته وقلده بشدة، فتحلى بصفاته من طهر ورقة وعظيم صفات وكرم.

وعلى الأمير الحكيم أن ينهج هذا النهج ولا يخلد في زمن السلم إلى الكسب أبداً وأن يصر على الاستفادة من هذه الطريقة بمهارة قدر الإمكان حتى أنه يستطيع أن يكون مستعداً لضربات القدر حين تتغير الأحوال وأن تكون له السيادة وقت الشدائد.

الفصل الخامس عشر

ما يلام عليه الرجال – وبخاصة الأمراء - أو يمدحون لأجله

ولم يبق الآن سوى أن ننظر فيما يخص طريقة الأمير في اختيار رعاياه وأصحابه وأنا أعلم أن هناك الكثير ممن سبقوني للكتابة في هذا الموضوع وأخشى أن يعتبر ما أكتبه نوعاً من الغرور حين يختلف عما كتبه الآخرون لكنني لا أود إلا الوصول إلى الحقيقة وليس تخيلها وأن الأصح هو أن تكتب ما يفيد الآخرين وليس ما تتخيله فقد تخيل الكثيرون جمهوريات لم ترها عين إنسان أو تخطر على ذهن آخرين غيرهم، وليس لها وجود في الحياة التي نحياها وشتان بين حياتنا كما نحياها، وبين ما ينبغي أن تكون ولا يجب علينا أن نترك ما نقوم به من أفعال في سبيل تحقق ما ينبغي تحقيقه على أتم وجه فهذا سعي للفناء وليس للبقاء في أفضل حال فمن يريد الخير لن ينعم أبداً إذا كان حوله الكثير من الأشرار لذلك يجب على الأمير الذي يريد الحفاظ على نفسه أولاً ، أن يعرف كيف يكون خيراً وليس شريراً ومتى يستخدم هذه الصفة؟ ومتى لا يستخدمها حسب الضرورة؟.

لهذا فإنني حين أتخلى عن الحديث في الأمور التي تخص الأمير من ناحية الخيال فقط وأتكلم عن الأمور الواقعية فكل الناس يذكرون لأعمالهم ا يدة، وخاصة الأمراء حيث إ م أعلى م لة من غيرهم وهناك خصال معينة تجلب عليهم اللوم، وأخرى تكسبهم المديح والثناء فالناس يعتبرون هذا سخياً وذلك مقتراً، وهذا معطاء يعطي بسخاء وذلك جشع هذا قاس، وذلك عطوف هذا لا يصون وعوده وهذا جدير بالثقة، وهذا جبان رعديد، وذاك مقدام وعنيف، هذا رقيق وذلك متغطرس، هذا فاسق، وذلك عفيف هذا صريح وذاك ماكر، هذا صعب المراس وذلك سهل الانتقاد هذا جاد جداً في كل أموره، وذاك ساخر، وهذا متدين، والآخر غير ملتزم بأمور دينه وغيرها من أمثلة ومن الواضح أن كل أمير يتصف بكل الصفات الخيرة السابقة سينال

ثناء كبيراً من الناس ولكن لما كان من غير الممكن أن يحوز كل هذه الصفات وذلك لأن صفات البشر لا تسمح بذلك كان من الضروري بالنسبة له أن يكون ذا حكمة كافية، تمكنه من تحاشي أي فضيحة بسبب رذيلة من هذه الرذائل، والتي قد تفقده الولاية ويقي نفسه من شرور الصفات الأخرى.

وإذا لم يستطع ذلك فعليه أن يهمل تماماً هذه الرذائل، ويحترس جداً فقط من تلك التي قد تسبب هلاكه ويجب عليه ألا يعبأ بفضح تلك الرذائل التي يصعب بدونها المحافظة على الولاية وذلك لأننا إذا نظرنا للأمور نظرة صحيحة لوجدنا أن بعض ما يبدو فضائل قد يهلكنا لو طبقناه، والبعض الآخر الذي يبدو من الرذائل قد يسبب سلامة الإنسان وسعادته.

الفصل السادس عشر
حول السخاء والشح

والآن لو تناولنا أولى هاتين الصفتين فإني أقول: من الأفضل للأمير أن يكــون كريماً سخياً إلا أن السخاء بمعناه عند العامة قد يؤذي صاحبه وذلك لأنه إذا استخدم الكرم بالطريقة الصحيحة وبمعناه الحقيقي، فلن يعلم أحد عنه أي شيء، وبالتالي يوصم صاحبه بالرذيلة المضادة وهي الشح والتقتير لكن على من يريد أن يشتهر بالسخاء بين الناس ألا يتخلى عن كل المظاهر الفخمة، لأن سخاء الأمير إذا وصل إلى هــذا الحــد سيستهلك جميع موارده، فيضطر إلى فرض الضرائب الباهظة علــى شــعبه وجبايــة الأموال في سبيل المحافظة على هذه الشهرة وهذا يبدأ الكراهية له في صدور رعايــاه، فهو قليل الاحترام حين يصبح فقيراً، كما أنه سيكون قد اضر الكثيرين بسخائه الذي لن يستفيد من سوى القلة ويؤثر فيه أول اضطراب بسيط، ويحيط بــه الخطــر عنــد حدوث الشدائد بسرعة، فإذا ما أدرك الأمير ذلك، وأراد أن يغير من طبعه، فإن يتهم بالشح والتقتير.

لذلك يجب على الأمير الذي يستطيع ممارسة عادة السخاء بطريقة تــضره ألا يخشى أن يوصم بالتقتير، لأنه سيعتبر سخياً مع مرور الزمن، حين يعرف أن اقتــصاده جعل الدخل كافياً للدفاع عن النفس ضد من يريد أن يشن علي حرباً كما يمكنه القيام بالكثير م الأعمال العظيمة دون أن يثقل كاهل شعبه، فيصبح سخياً في نظــر مــن لم يحصل منهم مالاً، وعددهم لا يحصى، وهو مقتر بالنسبة لمن لم يعطهم، وهــم قليلــون ونحن لم نر في أيامنا أعمالاً عظيمة إلا لمن كانوا في عداد المقترين، وقضي على جميع من عداهم إن البابا جوليوس الثاني كان في حاجة لهذه السمعة حتى يتمكن من شن الحرب كما أن ملك فرنسا الحالي قد استطاع شن عدة حروب كثيرة دون فرض أي ضــريبة استثنائية على شعبه، وذلك لأن ما وفره في فترة طويلة زاد عما أنفقه عليها ولو عرف

عن ملك أسبانيا الحالي أنه كريم لما تمكن من أن يقوم بكل هذه الأعمال الكثيرة ويوفق فيها.

ولكل هذه الأسباب لابد للأمير ألا يعبأ إذا ما وصف بالبخل، إذا أراد ألا يفقد رعيته، وأن يكون قادراً على حماية نفسه، وألا يصبح حقيراً وفقيراً، وألا يضطر إلى أن يصبح جشعاً إن الشح رذيلة تمكنه من الحكم فإذا قيل أن القيصر قد بلغ الإمبراطورية بالسخاء وصعد كثيرون غيره إلى أعلى م لة بالسخاء أو باشتهارهم به، فإني أرد على ذلك قائلاً إنك إما أن تكون أميراً حديث العهد، أو في طريقك لأن تكون أميراً ففـي الحالة الأولى يكون الكرم مضراً، أما في الحالة الثانية فيجب عليك دائماً أن تكون من شديدي الكرم لقد كان القيصر من هؤلاء الذين يريدون أن يصبحوا أسياد روما لكنه لو بقي على قيد الحياة ولم يغير من طريقة إنفاقه بعد أن بلغ مـراده فربمـا ـدمت الإمبراطورية وسقطت وقد يقال: إن كثيراً من الأمراء الذين حققوا فتوحات عظيمـة بجيوشهم كانوا يوصفون أيضاً بشدة السخاء، فإني أرد قائلاً: إن الأمير قد ينفق مـن أمواله الخاصة ومن ثروات الآخرين وأموال الرعية ففي الحالة الأولى وهي إنفاقه مـن أمواله الخاصة لابد أن يعرف عنه الاقتصاد في الإنفاق، وفيما عدا ذلك يجب أن يهتم بأن يكون سخياً، وهو أمر ضروري لأمير يسير بجيوشه، ويعيش على سلب الملكيات، والغنائم، والفدية، فهو ينفق من ثروة غيره كما أن جنوده لن يساندون دون أن يكون سخياً جداً معهم ومن الممكن لك أن تكون سخياً جداً بما لا تملك أو لا يملكه رعاياك، وذلك كما فعل كورش والإسكندر فالإنفاق من ثروات الآخرين لن يحط من سمعتـك بل إنه سيعلي من قدرك، ولن يؤذيك سوى الإنفاق مما تملك فقط ولا توجد صفة تحطم نفسها بنفسها مثل صفة الكرم، لأنه كلما زاد كرم المرء فإنه فقد القدرة على المزيـد منه، فيتحول إلى إما فقير حقير، أو جشع مكروه حتى يتحاشى الفقر وأهم ما يجب أن يتحاشاه الأمير من هذه الأمور هو أن يصبح فقيراً أو مكروهاً، والسخاء هو ما يقـود إلى إحدى هاتين الصفتين ولهذا فمن الأفضل أن يشتهر الأمير بالحرص الذي يجلب لـه

اللعنة وليس الكراهية، وألا يضطر إلى أن يكون جشعاً لأن ذلك يجلب له العار والكراهية معاً.

الفصل السابع عشر

حول الشدة واللين هل من الأفضل أن تكون محبوباً أم مهاباً؟

وعندما أريد أن أتحدث عن الشدة واللين أقول إنه على الأمير أن يسعى لأن يوصف بالرحمة وليس الشدة وأن يحرص على عدم إساءة استخدام الرحمة بأي حال من الأحوال كان فيصر "بورجيا" يوصف بالشدة وشدته هي سبب جلب النظام إلى "رومانا" وتوحيدها، واستتاب الأمن فيها، وضمان ولائها وإذا نظرنا لهذه المسألة نظرة صحيحة، فإننا نرى أن القيصر كان في الحقيقة أكثر رحمة من الشعب "الفلورنسي" الذي سمح بتدمير "بستويا" تجنباً لأن يوصف بالشدة لذا يجب على الأمي ألا يعبأ بأن يوصف بالشدة ما دامت هذه الشدة من أجل الحفاظ على مواطنيه وولائهم له، وذلك لأنه حين يكون شديد مع عدد قليل جداً من الناس، وهو بذلك أفضل من الأمراء الذين يفرطون في اللين مما يسبب وقوع الاضطرابات وتسيل الدماء ويحدث النهب والسلب وهذه أمور تضر الكثيرون بصفة عامة، لكن تنفيذ حكم الإعدام في عدد قليل من الناس لن يؤذي أحداً غيرهم والأمير حديث العهد بالإمارة فقط هو من في حاجة شديدة دون نقية الأمراء للاشتهار بالشدة، لأن الولايات الجديدة تعاني دائماً من الأخطار يقول "فيرجيل" على لسان ديدو:

حالة بلادي وشئوني مستعصية
دولة في المهد وعرش متزعزع الأركان
هذه الظروف قاسية
تمنعني من نشر قواتي في كل اتجاه
لأحمي أملاكي بقوة وأحرس شواطئي عن كثب

ومع ذلك يجب على الأمير أن يحذر من كل ما يحمله من معتقدات وكل ما يقوم به من أعمال، وألا يظهر بمظهر الجبان الرعديد، وأن يتقدم إلى الأمام بحكمة ولين وألا تجعله الثقة الزائدة يهمل الحذر، وألا تجعله الريبة الزائدة غير محتمل.

ومن هنا تبرز مشكلة المفاضلة بين وجوب أن يكون الأمير محبوباً أكثر منه مهاباً أم مهاباً أكثر منه محبوباً والجواب هو أنه ينبغي على الإنسان يكون محبوباً ومهاباً في نفس الوقت ولما كان من الصعوبة الحفاظ على الصفتين معاً، فإن المهابة في هذه الحالة أفضل بكثير إذا كنا لا نستطيع إيجاد الصفتين معاً لأنه من الممكن أن نقول عن عامة البشر أنهم ينكرون المعروف، ويحبون المراوغة في الحديث ومرائين، حريصون على تجنب الخطر، راغبون في الكسب، هم أعوانك طالما استفادوا منك، وهم يفدونك بالدم وما يملكون وبحياتهم وولدهم حين لا يكون هناك داع لذلك، ولكن حين تقترب الأخطار ينقلبون عليك، إن الأمير الذي يعتمد على وعود رعاياه يهلك إلا إذا تهيأ بالمعدات الكافية، وذلك لأن الصداقة التي يمكن شراءها غير مأمونة، ولن تعمل لصالحك عند الضرورة إن البشر يترددون في الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم في إيذاء من يهابون وذلك لأن الحب مرتبط بسلسلة من الارتباطات التي تتفكك عندما تؤدي غرضها (وذلك بسبب أنانية الناس) لكن استخدام المهابة والخوف من العقاب طريقة صحيحة لا تفشل أبداً.

ما زلت أقول: إنه على الأمير أن يجعل نفسه مهاباً بطريقة تجعله إن لم يحصل على الحب، فإنه يتجنب الكراهية على أي حال وذلك لأن المهابة وعدم وجود الكراهية من الممكن أن يجتمعا معاً ويستطيع تحقيق ذلك كل من يمتنع عن التدخل في أمور أملاك رعاياه ونسائهم وعليه ألا يأمر بإعدام أي شخص إلا بعد التأكد من المبررات الكافية لذلك ويوضح أسبابه لكنه يجب عليه –قبل كل شيء- الامتناع عن الاستيلاء على أملاك غيره، لأن الإنسان قد ينسى موت أبه بسهولة عن نسيانه لضياع ميراثه كما أنه لا حاجة للأمير أن يوجد الذرائع لاغتصاب ملكيات الغير فمن يعيش

على النهب سيجد دائماً سبباً يغتصب به متاع الآخرين بينما مسببات الإعدام أقل بكثير وتزول سريعاً.

لكن عندما يكون الأمير بين أفراد جيشه ومعه عدد كبير من الجنود فإنه يتحتم عليه أن يعرف بالشدة لأنه بدون هذه السمة لن يحافظ على وحدة الجيش أو يؤدي أي مهمة إن من بين منجزات "هانيبال" الجديرة بالذكر أنه على الرغم من وجود جيشه العرمرم ووجود الجنود فيه من دول كثيرة ومحاربته في دول أجنبية، إلا أنه لم يقع بينهم أي مشكلات أو يثوروا ضد الأمير سواء كان ذلك في السراء أم في الضراء وهذا لا يرجع إلى أي سبب سوى شدة "هانيبال" التي جعلته (بالإضافة إلى فضائله الأخرى التي لا تحصى) عظيماً بين جنوده ومهاباً باستمرار وما كانت قدراته كافية لتحقيق هذا الأثر لو لم يكن شديداً والكُتاب الذين لا يفكرون جيداً يعجبون بأعماله جهة، ومن جهة أخرى يلومونه على شدته وهي السبب الرئيس لإنجاز هذه الأعمال.

ومن الممكن أن نلاحظ أن بقية خصاله لم تكن كافية وحدها في حالة "سكيبو" (وهو مشهور ليس فقط في عصره، لكن ذكراه باقية في كل العصور) فقد ثارت عليه قواته في أسبانيا، ولم يكن لذلك سبب آخر سوى شفقته المفرطة، مما أتاح لجنوده قدراً من الفوضى، لا يتفق مع الحياة العسكرية وقد لامه "فابيوس ماكسيموس" على ذلك، وأطلق عليه لق "مفسد الجندية الرومانية" فقد دمر أحد ضباط "سكيبوط "لوكرا" فلم يقتص منه لذلك، ولم يعاقبه، والسبب ببساطة هو طبيعته المتساهلة لدرجة أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ أراد أن يلتمس له العذر فقال: إن هناك أناساً كثيرون يعرفون كيف يتجنبون الأخطاء، أكثر من معرفتهم بكيفية تصحيح أخطاء الآخرين وكان من الممكن لهذا الاستعداد أن يقلل من شهرة "سكيبو" لو استمر على ذلك في عصر الإمبراطورية، لكن في ظل مجلس النواب لم تختف هذه الصفة فقط ولكنها كانت سبباً لشهرته في نفس الوقت.

ولذلك فإني أختم حديثي عن مهابة الأمير، وحب الناس له فأقول: إن النـاس يحبون بمحض إرادتهم الحرة لكنهم يخافون حسب رغبة الأمير، وعلى الأمير العاقل أن يعتمد على ما له من سلطان، وأن يسعى لتجنب ما يسبب له الكراهية المدمرة كمـا سبق أن أوضحت.

الناشر: مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع – ترجمة أكرم مؤمن - طباعة: علي محمد المسلمي- البريد الالكتروني: ali_hantool@hotmail.com

الفصل الثامن عشر

كيف يصون الأمراء عهودهم

كلنا نعرف مدى الثناء الذي يناله الأمير الذي يحفظ عهده ويحيا حياة مستقيمة دون مكر لكن تجارب عصرنا هذا تدل على أن أولئك الأمراء الذين حققوا أعمالاً عظيمة هم من لم يصن العهد إلا قليلاً وهم من استطاع أن يؤثر على العقل بما له من مكر كما استطاعوا التغلب على من جعلوا الأمانة هادياً لهم.

ويجب أن نعلم أن هناك طريقتين للقتال، واحدة لها قواعد وقوانين والأخرى تعتمد على القوة فقط الطريقة الأولى للبشر، أما الثانية للحيوانات المفترسة، ولما كانت الأولى غير كافية في أغلب الأحوال، فإن المرء كان يلجأ غالباً للطريقة الثانية ولهذا فمن الضروري للأمير أن يعرف حق المعرفة كيف يستخدم كلتا الطريقتين وقد علم الكُتاب القدامى أمراءهم ذلك وأوحوا له به فهم يرون أن "أخيليس" وغيره الكثير من الأمراء القدامى قد أرسلو إلى "كيرون" ليربيهم ويعلمهم بطريقته وهم يقصدون من صورة هذا المعلم ذي النصف البشري والنصف الحيواني أن يوضحوا أنه على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطريقتين معاً، فواحدة منهما لن تدوم بدون الأخرى.

ولهذا السبب كان الأمير يضطراً إلى أن يعلم جيداً كيف يتصرف كالحيوان، فهو يقلد الثعلب والأسد، لكن الأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ والثعلب غير قادر على مواجهة الذئاب على المرء إذن أن يكون ثعلباً ليواجه الفخاخ ويكون أيضاً أسداً ليخيف الذئاب ومن يريد أن يكون أسداً فقط لا يفهم الأمور جيداً فعلى الأمير إذن ألا يحفظ عهداً يكون الوفاء به ضد مصلحته وألا يستمر في الوفاء بوعد انتهت أسباب الارتباط به وقد يكون هذا المبدأ مبدأ شريراً لكن هذا يصدق فقط في حالة ما إذا كان جميع البشر من الأخيار لكن إذا كانوا جميعاً من الأشرار ولن يرعوا عهودهم معك فهذا يسمح لك أن تكون في حل من عهودهم فلم يفشل أي حاكم في

اختلاق الأعذار المقبولة التي يبرر ا عدم الوفاء بالعهد وهناك عدد لا حصر له مـن الأمثلة في العصر الحديث تؤكد ذلك، وتوضح أن هناك وعوداً كثيرة قد بطلت بسبب عدم وفاء الأمراء ا كما توضح لنا أن الذين استطاعوا تقليد الثعلب بمهارة حققـوا أفضل نجاح ولكن لابد لك أن تكون قادراً على إخفاء هذه الصفة بمهارة، وتـستطيع التمويه والخداع حيث إن البسطاء من الناس على استعداد لقبول أي أمر واقع، ومن يخدعهم سيجد من بينهم من يقبل أن ينخدع بسهولة.

ولن أذكر سوى مثال حديث واحد، حيث لم يفعل "الإسكندر السادس" شيئاً سوى التغرير بالناس، فلم يفكر بغير ذلك، ودائماً ما واتته الفرصة لتحقيقه فلم يتفوق عليه أحد في قدرته على توفير الضمانات، وتأكيد الأمور بالحلف الكاذب، ولم يتفوق عليه أجد في عدم الوفاء بالعد، وكانت حيله دائماً موفقة تحت أي ظروف، لأنه كـان يفهم هذا الأمر جيداً.

وليس من الضروري للأمير أن تكون لديه كل الخصال التي سبق ذكرها، على أنه من الضروري أن يبدو عليه أنه يتصف ا وأستطيع أن أقـول: إن المحافـة علـى التحلي ذه الصفات، والحفاظ عليها أمر خطير، لكنه أمر مفيد على أي حال وعلـى ذلك فمن المفيد أن يبدو الأمير رحيماً، وفياً حلو الصفات، صادقاً، متديناً، وأن يكون كذلك فعلاً، وليس مظهراً فقط ولكن يجب أن يتهيأ عقلك لكي تتحول إلى أضـداد هذه الصفات عند الحاجة ويجب أن يكون من المفهوم أن الأمير حديث العهد بالإمارة لا يمكنه مراعاة كل ما يعتبره الناس خيراً، وذلك لأنه في سبيله للحفاظ على الدولة قد يضطر للقيام بأعمال ضد الوفاء والإحسان والصفات الحسنة والدين ولذلك فعليه أن يعد عقله للتكيف مع أي ريح قد ب عليه، ومع تغييرات المستقبل كما يجب عليـه (كما سبق أن قلنا) أن لا يبتعد عن الخير قدر الإمكان مع قدرته على ارتكاب الشرور إذا اضطر إليها.

الناشر: مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع – ترجمة أكرم مؤمن - طباعة: علي محمد المسلمي- البريد الالكتروني: ali_hantool@hotmail.com

وعلى الأمير أن يصون لسانه فلا ينطق إلا بما يسبغ عليه من الصفات الخمس الطيبة السابق ذكرها ولابد له أن يبدو رحيماً وصادقاً ومستقيماً ومتديناً أمام من يراه ويسمعه وهذه الصفة الأخيرة ضرورية جداً لأن الناس يحكمون على ما يرونه بأعينهم، وليس على ما يدركونه، فكلنا يستطيع الرؤية، لكن قلة قليلة منا تستطيع أن تدرك واقع الحال الذي أنت عليه، وهي غير قادرة على مواجهة الكثرة التي تحميها مهابة الأمير وفي كافة الأعمال البشر –وخاصة الأمراء- فإن الغاية تبرر الوسيلة، وهذا حكم لا يمكن نقضه؛ فعلى الأمير إذن أن يهدف للفوز بالولاية والمحافظة عليها، وسوف يحكم الجميع على وسائله بأنه شريفة ويمدحو ا أيضاً فعامة الناس يحكمون على الأشياء من مظهرها الخارجي وهذا العالم لا يتكون إلا من هؤلاء العامة أما غير الساذجين فهم قلة تنعزل حين تجد الكثرة مجتمعة حول الأمير وهناك أمير في عصرنا – لا داعي لذكر اسمه- كان كل ما يفعله هو الدعوة للسلام والوفاء، وهو في الحقيقة عدو لهما، ولو أنه اهتم بأي منهما في مناسبات عديدة لضاعت منه دولته وخسر اسمه.

الفصل التاسع عشر
كيف تتجنب الاحتقار والكراهية

أما وقد تحدثنا عن أهم الصفات التي نتناولها في هذا الكتـاب، فـسأعالج الآن بالتفصيل كافة الصفات الأخرى فيجب على الأمير، كما قلت سابقاً أن يجتنب كل ما يجعل الناس يكرهونه أو يحتقرونه ولا يكون قد قام بدوره إلا حين يوفق في هذا الأمـر ولن يكون في بقية الرذائل أي خطر وأول ما يجعل الأمير مكروها –كما قلـت مـن قبل- هو أن يكون جشعاً، وأن يغتصب ممتلكات رعاياه أو نساءهم، وهذا هو ما يجب عليه أن يمتنع عنه ومادام الأمير لا يتعدى على ملكية عامة الناس أو نساءهم، فـإ م سيعيشون في رضا، ولن يكون أمامه سوى محاربة مطامع قلة من الناس الـذين يمكـن السيطرة عليهم بطرق عديدة ويكون الأمير محتقراً حين يعتقد النـاس بأنـه متقلـب وطائش ومخنث وجبان وضعيف العزيمة وهذا يجب تجنبه كما يتجنب القبطان صـخرة قاتلة ومن واجبه أن يحافظ على ظهور أعماله بصورة تعكس العظمة، والقدرة، وا د وألا يقبل النقض فيما يحكم به بين رعاياه ويتمسك بما يصدر من قرارات حتى لا يفكر إنسان في أن يضلله أو يخدعه.

إن الأمير الذي يخلق هذا الرأي عن نفسه عند الناس يحظى بسمعة عظيمة ومن الصعب أن يتآمر عليه أي إنسان ولن يعتدي عليه أي معتد بسهولة، حيث إنه يعرف أنه قدير، وتحترمه رعيته ويجب على الأمير أن يخشى شيئين: الأول داخلي وله علاقـة بالرعايا، والثاني خارجي وله علاقة بالقوى الأجنبية يستطيع الأمير أن يحمي نفسه من الأمر الثاني بالأسلحة الجيدة والأصدقاء والمخلصين، وهـؤلاء الأصـدقاء يتـوافرون بسهولة مادام يملك الأسلحة الجيدة أما الأحوال الداخلية، فإ ا ستظل هادئة دائماً ما لم تثيرها مؤامرة فتضطرب الأحوال، ولم يحدث اضطراب في الخارج وحتى إذا افترضنا أن قوات أجنبية سعت إلى الهجوم على الأمير، فإنه سيتحمل دائماً ويتمكن من مواجهـة

كل الصعاب، وذلك مثلما حدث مع "نابيس" الإسبرطي أما بالنسبة للرعايا فيجـب عليه أن يحتاط من تآمرهم عليه سراً، وذلك إذا كانت رعيته لا تعمل وفقاً لنـصائح أجنبية وهذا من الممكن له تجنبه جيداً بالبعد عن أن يكون محتقراً أو مكروهاً، وذلـك ببقاء العب راضياً عنه،ومن الضروري تحقيق هذا الأمر، وكما قلت تفصيلاً من قبـل كما أن أفضل علاج للأمير ضد أي مؤامرات هو حب الشعب له لأن من يتآمر يعتقد أنه سيرضي العش إذا اغتال الأمير لكنه لو علم أن سيثير جموع المواطنين بفعلته، فإنـه سيتجنب تلك الفعلة لأنه سيواجه بذلك مشكلات لا تعد ولا تحصى وهذا ما يجعـل كثيراً من المؤامرات تقع دون أن تنجح، وكل متآمر لا يستطيع العمل بمفرده، ولن يجد له شريكاً سوى من الناقمين، والناقم يكتشف مقصدك بسرعة عندما تتبين لـه نيـة المتآمر، فيأمل تحقيق فائدة من وراء إتباعه لك، لكنه من ناحية أخرى يرى فيما تعرضه عليه أمراً محفوفاً بالمخاطر، ولابد لكي يستجيب لك أن يكون واحداً من اثنين: إمـا صديق مخلص لك أو عدو شديد العداوة للأمير ولتوضيح هذا الأمر بإيجاز أقـول: إن المتآمر لن يجد حوله سوى الخوف والحقد والشك والعقاب أما ألأمير فهو محاط بقـوة الحكم والقوانين والأعوان الذين يحمونه وولاية تدافع عنه وإذا ما أضفنا إلى ذلك إرادة الشعب المحيط به، عندئذ يستحيل أن يقدم أي إنسان على أن يتآمر عليـه كمـا أن المتآمر يشعر بالخوف قبل تنفيذ المؤامرة، وسيشعر بالخوف أيـضاً بعـد إنجازهـا لأن الشعب سيكون عدواً له في هذه الحالة، ولا ملاذ منه.

ولدينا العديد من الأمثلة على ذلك، ولكني سأكتفي بمثال يذكره آباؤنا لقـد تآمر "الكنسكي" على "هانيبال بنتوفلي" أمير بولونيا، وهو جد "هانيبال" الحالـي ولم يكن له أي أقارب سوى "جيوفاني" وكان لا يزال طفلاً في ذلك الوقت ولكـن بعـد الاغتيال ثار الشعب وقتل "الكنسكي" جميعاً وذلك بسبب السيرة الطيبة التي تتمتع ا عائلة "بنتيفولي" في ذلك الوقت وقد كانت عالة عظيمة لدرجة أن أهل بولونيا حـين عرفوا أن هناك فرداً من أسرة "بنتيفولي" يعيش في "فلورنسا"، وكان يعتقد أنـه ابـن

حداد، ذهبوا إليه ليحضروه ونصبوه حاكماً على المدينة، وظل يحكمها حـتى أصـبح "جيوفاني" شاباً وفي سن مناسبة لتولي الحكم، حيث لم يكن هناك خليفة آخر لهانيبـال سواه.

وعلى ذلك فإن على الأمير ألا يهتم بالمؤامرات إذا كان الشعب يناصره ويحبه، ولكن إذا كان يكرهه ويعاديه، فعليه أن يخاف من كل فرد يخـشى كـل شـيء إن الولايات التي تقوم على نظام جيد وأمراء ذوي عقل أولى همـة لا يجعلـون النـبلاء يضيقون   م، ويجعلون الشعب راضياً عنهم، ويحافظون على هذا الرضا وهذا من أهم الأمور التي يجب أن يهتم الأمير   ا.

وفرنسا من الممالك التي تتمتع بنظام حكم جيد في عصرنا الحالي، ففيها عدد لا يحصى من المؤسسات الصالحة، وهي ما يعتمد عليه الملك لسلامته وحريته وأول هـذه المؤسسات هو البرلمان بما له من صلاحيات، وذلك لأن من أقام هذه المملكة يعـرف مطامع علية القوم، وغطرستهم، ويعرف أنه من الضروري أن يكبح جمـاحهم وهـو يعرف –من ناحية أخرى- الكراهية التي يشعر   ا الشعب تجاه علية القوم، وهي تقوم على الخوف، وحين أراد أن يشعرهم بالأمن لم يشأ أن يجعل هذا الأمر من مهام الملـك الخاصة حتى يجنبه سخط الشعب لو أنه جامل النبلاء، ولذلك أنـشأ حكمـاً ثالثـاً (البرلمان) يكبح جماح النبلاء دائماً ويجامل البسطاء وما كان من الممكن فعل مـا هـو أفضل من ذلك، أو الاحتياط لسلامة الملك والملكة بطريقة تتفوق على ذلك، وختامـاً أقول: إنه على الأمير أن يحترم نبلاء ولايته، لكن عليه أيضاً ألا يجعل عامـة الـشعب يعادونه.

وقد يبدو للبعض أننا عندما نتناول حياة كثير من الأباطرة الرومان أ ا تعارض رأيي، فبعضهم قد عاش حياة النبلاء وأظهروا قـوة عظيمـة، مـع ذلـك فقـدوا إمبراطورياته، وقتلهم من تآمر عليهم من رعاياهم وعنـدما أود الـرد علـى هـذه الاعتراضات، فإني سأناقش صفات بعض الأباطرة مبيناً أسباب هلاكهم التي لن تختلف

عم اقتل، وسأتناول أيضاً بعض الأمور التي يجب أن يلاحظها كل من يقرأ عن هـذه العصور وأكتفي بالحديث عن جميع الأباطرة الذين تعاقبوا على الإمبراطورية بداية مـن "ماركوس" الفيلسوف حتى "ماكسيمينوس" وهم: "ماركوس" وولده "كومـودوس" و"برتينكس" و"جوليانوس" و"سيفروس" وولده "أنطونيـوس" وولـده "كـراكلا" و"ماكرينوس" و"هاليوجابالوس" و"الإسكند" و"ماكسيمينوس" وأول ما يمكن ملاحظته هو أن أباطرة الرومان كان أمامهم صعوبة ثالثة وهي ضرورة تحمـل قـسوة الجنـود وجشعهم، وهذا قد بلغ مداه حين أصبح سبباً في سقوط الكثير من الأباطرة، فلم يكن من المستطاع إرضاء الشعب والجيش معاً بسهولة، بينما كان على الأمراء غير الأباطرة أن يواجهوا مطامع الطبقة الراقية ومغالاة الشعب فقط فالشعب يحب الهدوء، وبالتالي يحب الأمراء المسالمين، بينما يفضل الجنود الأمير ذا الروح العسكرية والكبرياء والشدة والجشع، وهم يرون أن يمارس هذه الصفات مع الشعب كي يحصلوا منه على رواتب مضاعفة ويجدوا لشجاعتهم وشدتهم متنفساً ولذلك حدث أن هلك كل الأباطرة الذين لم يعرف عنهم القدرة على ضبط الطرفين معاً حيث اقتصر عدد كبير منهم (وهم مـن كانوا حديثي العهد بالإمبراطورية وعرف صعوبات هذين الاتجاهين المتضادين) علـى إرضاء الجند ولم يفكر في أن يسيء إلى شعبه، وهو اختيار حتمي إذا كان الأمير غـير قادر على تجنب كراهية طرف من الطرفين وعليهم أولاً ألا تكرههم جموع الـشعب، فإن لم يستطيعوا تحقيق ذلك فعليهم أن يفعلوا كل ما هو مستطاع لتجنـب كراهيـة الجانب الأقوى لهم ولذلك فإن الأباطرة حديثي العهد، كـانوا في حاجـة إلى اشـياء محددة، فناصروا الجنود أكثر من مناصرتهم للشعب وتتوقف فائدة ذلك من عدمها على إدراك الأمير لكيفية المحافظة على سمعته الطيبة بين أفراد الشعب وهذه هي الأسـباب التي أدت إلى النهايات السيئة لـ "ماركوس" و"برتيناكس" و"الإسكندر" فقد كـانوا جميعاً متواضعين، يحبون العدل، ولا يحبون الشدة وأهل لطـف ولـين وقـد عـاش "ماركوس" وحدة عزيزاً ومات كريماً، لأنه وصل إلى الإمبراطورية بحقه الموروث، دون

تفضل من الشعب أو الجيش، بالإضافة إلى أنه كان يتصف بكثيرة من الفضائل التي جعلته محترماً، وقد حافظ طيلة حياته على الفريقين ولم يتجاوز أي منهما حدوده ولم يكن مكروهاً أو محتقراً أبداً لكن تنصيب "برتيناكس" إمبراطوراً بغير رغبة من الجنود الذين قد ألفوا الفوضى في عهد "كومودوس" فلم يستطيعوا مجاراة الحياة الشريفة التي أرادها "كومودوس"، ولذلك اصب مكروهاً، وإضافة إلى احتقاره لكبر سنه، فسقط سريعاً في بداية حكمه.

ومن هنا يتضح أن الأعمال الصالحة قد تجلب الكراهية، كالأعمال الشريرة، ولذلك فإن الأمير الذي يريد يحافظ على ولايته أن يقترف بعض الشرور، كما سبق أن أوضحت وذلك لأنه إذا فسد طرف من الأطراف الثلاثة، سواء كان الشعب، أو الجيش، أو النبلاء، وكنت تعتبره ضرورياً من أجل المحافظة على مركزك، فيجب عليك أن تتبع هواه وترضيه، وهنا تؤذيك الأعمال الصالحة.

وإذا تحدثنا عن الإسكندر الذي كان طيباً لرجة أ م أثنوا عليهم بقولهم: إنه لم يعدم أحداً خلال الأربع عشرة سنة التي قضاها في الحكم دون إجراء محاكمة عادلة له لكنه اعتبر مخنثاً وأنه أجاز لوالدته أن تسيطر عليه، وهكذا احتقره الناس وسقط في الهاوية، فتآمر عليه جيشه وقتله.

وحين تنظر بتمعن إلى صفات "كومودوس" و"سيفيروس" و"أنطونيوس" و"كاراكلا" و"ماكسيمينوس" تجد أ م قد وصلوا في القسوة والجشع إلى أقصى حد، ولم يفرضوا على الشعب أي شيء يسيء إليه إرضاء للجنود، وكانت ايتهم جميعاً سيئة عدا "سيفيروس" حيث كانت له القدرة التي مكنته من أن يحكم حكماً موفقاً بأن حافظ على جنوده كأصدقاء له، بالرغم من بطشه بالشعب، وذلك لأن صفاته جعلته يحوز إعجاب الشعب والجنود معاً، حتى أصبح الشعب مدهوشاً لأعماله بينما تابعه الجنود وهم راضون.

ولما كانت أعمال هذا الحاكم عظيمة وجديرة باحترامه كأمير حديث العهد، فإني سأوضح باختصار كيف أنه أجاد استخدام صفات الثعلب والأسد، حيث يجب على الحاكم أن يقلدهما بما أن "سيفيروس" قد كان قائداً للجيش في "سلافونيا" ويعرف تكاسل الإمبراطور "جوليانوس"، لذلك فقد أقنع القوات بأنه من الأفضل أن يذهبوا إلى روما للثأر لمقتل "برتيناكس" الذي كان الحرس البريتوري قد قتله وسار بجيشه إلى روما تحت ستار هذا الإدعاء ولم يكشف عن مطامعه في العرش، ووصل إلى إيطاليا قبل أن يعرف عنه أنه قد تحرك إليها وعندما وصل روما انتخبه مجلس الشيوخ إمبراطوراً بدافع من الخوف، وقتل "جوليانوس" وبعد هذه البداية، لم يكن أمامه للسيطرة التامة على الإمبراطورية سوى عقبتين، إحداهما في أسبانيا حيث يوجد "نجرينوس" على رأس جيوش آسيا وقد نصب نفسه إمبراطوراً والأخرى كانت في الغرب حيث "البينوس" الذي يطمع في الإمبراطورية وكان إظهاره للعداء لهما معاً أمراً خطيراً، فقرر أن يخدع "ألبنوس" الذي أرسل إليه راغباً في أن يشاركه الفخر باختيار مجلس الشيوخ له ولقبه بالقيصر، ونودي به كشريك لـ "سفيروس" وذلك بأن عرض الأمر على مجلس الشيوخ وقد صدق "البينوس" كل هذا واعتبره صادقاً ولكن بعد أن هزم "سفيروس" "نجيروس" وقتله، واستتبت الأمور في الشرق، عاد إلى روما، واتهم "البينوس" في مجلس الشيوخ بأنه سعى إلى اغتياله، ولم يراع النعم التي تفضل بها عليه، وأنه مضطر للذهاب إليه، ومعاقبته على ذلك الجحود ثم ذهب لملاقاته، وجرده من منصبه وحياته معاً.

وكل من يتنازل أعمال "سفيروس" بدقة سيجده أسداً مفترساً وثعلباً ماكراً، وهو مهاب وجليل عند الجميع، لا يكرهه الجيش، وكان له سلطان كبير كما أن سمعته الطيبة حمته من كراهية شعبه التي من الممكن أن تحدث بسبب جشعه لكن ابنه "أنطونيوس" كان صاحب قدرات عظيمة، وصفات جعلته جديراً بإعجاب الشعب، ومحبوباً من الجند في نفس الوقت فقد كان رجل حرب، وقادراً على تحمل الصعوبات الشديدة، لا يحب تناول ما لذ وطاب من طعام، وكل أنواع الترف الأخرى هي

الناشر: مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع – ترجمة أكرم مؤمن - طباعة: علي محمد المسلمي- البريد الالكتروني: ali_hantool@hotmail.com

خصال جعلت الجيوش جميعها تحبه إلا أن وحشيته وقسوته كانتا واضحتين جـداً، ولم يكن لهما مثيل، وقد تسبب في قتل عدد كبير من روما، وبعد أن أعدم الكـثير مـن الناس، أصبح كافة الشعب يمقته، ويخشاه من حوله، حتى قتله قائد فرقة من المائة بين أفراد جيشه.

والآن ننتقل إلى "كومودوس" الذي كان باستطاعته أن يحتفظ بالإمبراطوريـة بكل سهولة فقد كان وريثاً لها، فهو ابن "ماركوس" وقد كان من الممكن أن يكتفـي بإتباع ما كان يفعله أبو، حتى يرضى عنه الشعب والجيش معاً ولكنه مال إلى أن يكون صارماً بوحشية، وعمل على مجاملة الجيش، حتى يستطيع أن ينهب شعبه ولكنه مـن ناحية أخرى أصبح حقيراً في نظر جنوده بسبب عدم حفاظه على مركزه وذلك لأنـه كان ينزل في أحيان كثيرة إلى حلبات المصارعة، ويتحدى المـصارعين، بالإضـافة إلى أعمال مشينة أخرى لا تليق بعظمة الإمبراطور ولما كان مكروهاً من ناحية، ومحتقراً من ناحية أخرى، تآمروا عليه وقتلوه.

أما إذا أردنا وصف شخصية "مكسيمينوس" فقد كان رجـل حـرب بارعـاً وكانت الجيوش قد ضاقت بتخنث الإسكندر الذي تحدثنا عنه قبل قليـل فانتخـب "مكسيمينوس" بعد موت الإسكندر إمبراطوراً، لكنه لم ينعم بذلك طـويلاً، فهنـاك شيئان قد جعلاه مكروهاً وحقيراً، الأول: هو أصله الوضيع المعلوم للجميع، مما سبب احتقاره في جميع الأحوال والثاني: أنه وفي بداية عهده أجل الذهاب إلى روما ليعتلـي العرش الإمبراطوري، وقد عرف عنه الصرامة الشديدة كما اقترف على يـد نـواب الحكام أعمالاً قاسية متعددة، وذلك في روما وفي نواح متفرقة من الإمبراطورية لذلك فإن الاستياء من وضاعة أصله، والكراهية خوفاً من وحشيته، دفعا الجميع إلى السخط عليه، فبدأ التآمر في إفريقيا أولاً ثم في مجلس الشيوخ، وكل شعب روما وايطاليا فيمـا بعد انضم إليهم الجنود الذين غضبوا من قسوته حين كانوا يحاصرون "أخيلية" وكـان حصارها أمراً شاقاً وحين أدركوا أن له أعداء كثيرون، لم يخافوا منه وقتلوه.

ولن أتطرق للحديث عن "هليوجالوباس" و"ماكرينوس" و"جوليانوس" فقد أخذوا جميعاً على حين غرة، وكانوا غاية في الاحتقار، لكني أختتم هذا المقال بقولي: "إن أمراء عصرنا هذا يلقون صعوبات أقل بكثير ممن ذكرت، فهم مضطرون لإرضاء جيوشهم بدرجة كبيرة، وهم إن كانوا ذوي وضعخاص إلا أن ما يواجهونه من صعوبات سرعان ما ينتهي، حيث لا يوجد من بينهمن من يملك جيشاً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإمارات الحكم والمقاطعات كما كان الحال في الجيوش الرومانية فحينذاك لم يكونوا حريصين على إرضاء الجند قبل إرضاء الشعب سوى لأن الجند أقدر على أن يفعلوا ما لا يمكن للشعب أن يفعله والآن وفيما عدا الأتراك ومماليك مصر، فإن إرضاء الشعب أكثر من الجنود أمر يلتزم به الأمراء كافة لن الشعب يستطيع أن يفعل ما لا يفعله الجنود وأنا استثني سلطان الأتراك من ذلك لأنه يحتفظ باثني عشر ألفاً من المشاة حوله دائماً، وخمسة عشر ألفاً من الفرسان، وعليهم تتوقف سلامة المملكة وقوتها وكان من الضروري بالنسبة له أن يؤجل أي شيء آخر حتى يتأكد من ولاء هؤلاء جميعاً له وكذلك الحال بالنسبة للممالك، فالسلطان ملزم بالحفاظ على ود الجنود، دون النظر إلى الشعب، ويمكننا أن نلاحظ أن ولاية السلطان تختلف عن ولايات الأمراء الآخرين فهي تشبه البابوية المسيحية، فهي لا يمكن أن تسمى ولاية ملكية وراثية، ولا هي مملكة حديثة العهد، فأبناء الأمير الذي يرحل لا يرثونه ولكن يرثه خليفة في الحكم ويختاره أصحاب النفوذ وهو نظام قديم ولا يمكن اعتباره مملكة حديثة العهد، لأنه يخلو من الصعاب التي توجد في الإمارات الجديدة وعلى الرغم من أن الأمير يكون جديداً إلا أن قواعد الولاية قديمة ومنتظمة، وهو يستقبل كما لو كان وريثاً للعرش.

وإذا عدنا إلى موضوعنا فإني أقول: كل من يدرس الحجج السابقة سيعرف أن أسباب سقوط الأباطرة الذين ذكرتهم كانت إما الكراهية، أو الاحتقار، وسيعرف أن بعضهم قد سار على طريق والبعض الآخر سار على طريق آخر وفي كلا الطريقين نجح

البعض، وفشل البعض الآخر لقد حالو "برتيناكس" والإسكندر" تقليد "ماركوس" بلا فائدة بل إ ا كانت محاولات ضارة فقد كان كلاهما أميراً حـديث العهـد، وكـان "ماركوس" أميراً موراثياً وهو نفس حال "كاراكلا" و"كمودوس" و" ماكـسيمينوس" فقد أضيروا جميعاً من تقليدهم لـ "سفيروس" فلم تكن لهم القدرة الكافية التي تمكنهم من السير على منهجه ولذلك فإن الأمير حديث العهد لا يـستطيع تقليـد أعمـال "ماركوس" أثناء ولايته، ولا لزوم لأن يقلد "سفيروس" لكنه عليه أن يأخذ من هـذا وذاك ما يفيده ويرفعه ليحافظ على ولاية وصل إليها وهي قائمة وسالمة بالفعل.

الفصل العشرون

حول ماذا كانت القلاع والأشياء الأخرى التي يلوذ بها لأمراء مفيدة أم ضارة.

لقد تعمد بعض الأمراء نزع السلاح من مواطنيهم من أجل ضمان سلامة حكمهم بينما حفاظ غيرهم على ما يتبعه من ولايات مقسمة إلى أجزاء كما كانت وهناك من سعى إلى إثارة العداوة فيما بينها، ومنهم من أراد أن يكسب أولئك الذين شكوا فيهم في بداية الحكم إلى جانبهم وبعضهم شيد الحصون والآخر دمرها وهدمها، وإن كان الإنسان لا يستطيع أن يحكم حكماً قاطعاً في هذه الأمور دون أن يتعمق في تفاصيل حياة الولاية التي سيتحدث عنها، ولذلك سأتحدث عنها بطريقة عامة قدر الإمكان.

لم يشتهر أي أمير بأنه يـ ع سلاح رعاياه، بل إنه على العكس من ذلك كان يسلحهم إن وجدهم عزلاً، وأنت حين تسلحهم تكون هذه الأسلحة ملكاً لك وسيخلص لك من كان في قلبك شك من ناحيته، ويستمر المخلصون على ولائهم، وسيتحول من كان مجرد واحد من الرعية إلى واحد من الأنصار، ولما كان من المستحيل تسليح الرعية بالكامل، لكنك عندما تسلح البعض منهم تستطيع أن تعامل الباقين معاملة بأمان أكثر، وهذا الاختلاف في المعاملة يجعل رجالك أكثر ولاءً لك كما أن الآخرين سيلتمسون لك العذر عندما يجدون أن من يقومون بالواجبات الخطرة هم من ينالون تقديراً أكبر أما إذا نزعت منهم السلاح، فإنك تسيء بذلك إليهم، وتبد

و بمظهر غير الواثق منهم، إما لأ م من الجبناء أو لقلة ثقتك فيهم، وكل من هذين التفسيرين يولد كراهيتك في نفوسهم وبما أنك لا تستطيع أن تبقي أعزل بدون سلاح، فإنك ستضطر إلى استئجار الجنود بمبالغ عالية وإذا افترضنا أن هؤلاء الجنود سيكونون صالحين، فإ م لن يكونوا قادرين على الدفاع عنك ضد أعداء أقوياء، وضد رعايا مشكوك في أمرهم، ولذلك فإن رعايا الأمير الجديد في مملكة جديدة يكونوا

دائماً مسلحين حينما يستولي على الإمارة، والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك ولكـن الأمير، عندما يكسب ولاية جديدة ويضمها إلى ولايته القديمة، فمـن الـضروري أن ينزع سلاح هذه الولاية عدا من وقف بجانبه وناصره عند الاستيلاء عليهـا، وحـتى هؤلاء يجب على الأمير أن ينتهز الفرصة والوقت المناسب، ويجعـل منـهم ضـعفاء ومخنثين، وأن يهيئ كل شيء ليجعل جميع أسلحة الولاية الجيدة في أيدي الجنود الذين يعيشون بالقرب منه في ولايته القديمة.

إن أجدادنا والذين يعتبرون من الحكماء اعتادوا أن يقولوا: الأحزاب السياسية ضرورة للسيطرة على "بستويا"، والقلاع وسيلة للسيطرة على "بيزا" وهم قد أثـاروا الخلافات في بعض المدن التابعة لهم حتى يستطيعوا حكمها بسهولة وهذا أمر صالح في ذلك الوقت الذي كانت فيه إيطاليا تنافس القوى الكبيرة ولكنه لا يبدو لي مناسباً في الوقت الحاضر وذلك لاعتقادي بأن الأحزاب التي تنشأ بهذه الطريقة لا تـأتي بـأي فائدة.

وأعتقد أيضاً أن البنادقة قد رحبوا بالتفرقة بين كتلتي "الجولف" و"الجبلين" في المدن الخاضعة لهم ومع أنهم لم يسمحوا لهم بإراقة الدماء إلا أنهـم شـجعوا وجـود الخلافات وذلك لأن أبناء هذه المدن حين ينشغلون بخصوماتهم الخاصة لا يتحركـون ضد البنادقة لكنهم لم يصلوا إلى أي فائدة من ذلك على أي حال، فكما رأينا أنه بعـد الهزيمة في "فايلا" تشجعت جماعة من المواطنين وقامت فجأة بالاستيلاء علـى كامـل الولاية.

وما من شك في أن الأمراء يصبحون عظماء حين يتغلبون على ما يواجهونه من معارضة ومن صعاب مما جعل البعض يظن أنه على الأمير العاقل أن يثير العـداء بـين الرعية بدهاء حين تسنح الفرصة، حتى تزيد عظمته حين يسيطر عليهم ويكبحهم.

إن الأمراء وخاصة حديثي العهد منهم –قد وجدوا من هؤلاء الـذين كـانوا ينظرون إليهم بشك في بداية عهدهم إخلاصاً أكثر مما وجدوه فيمن كـانوا موضـع

ثقتهم منذ البداية وقد حكم "بانولفوبتروتشي" ولايته بمن شك فيهم أكثر من حكمه لها بغيرهم ولكننا لن نسهب في هذا الموضوع ولكنني أقول أن الأمير من الممكن أن يكسب ود من كانوا أعداءه عند بداية حكمه بسهولة وسيخلصون له أكثر من غيرهم وذلك لأنهم يدركون أن عليهم أن يبطلوا بأعمالهم ذلك الرأي السيئ الذي سبق للأمير أن كونه عنهم ولهذا فإن الأمير سيستفيد منهم أكثر من هؤلاء الذين اعتادوا خدمته فأهملوها لاطمئنانهم إليه.

لكني أغفل ذكر الأمير الذي أخذ ولاية جديدة بعد أن ساعده أهلها سراً، لأن الموضوع يتطلب ذلك، وأرى أن عليه أن يضع في اعتباراته تلك الدوافع التي أدت بهم إلى ذلك فإن لم يكن ذلك بسبب حبهم له، وإنما فقط بسبب غضبهم من أوضاع الولاية السابقة، فإنه سيواجه متاعب كبيرة ومشكلات كثيرة، وذلك لأن رضاهم عنه من المستحيل.

وحين نتناول أسباب الأمثلة التي استخرجتها من الأزمة الحديثة والقديمة نرى أن اكتساب صداقة الذين كانوا غير راضين عنك في النظام القديم، ومن كانوا أعداء لنا في بداية العهد، أسهل كثيراً من كسب صداقة من ساعدوا الأمير على الاستحواذ على ولاية جديدة لسخطهم على النظام القديم.

وقد تعود الأمراء على إقامة القلاع حتى يستطيعوا السيطرة على ولاياتهم بسلام، وهي تعتبر وسائل دفاعية قوية ضد من ينوي لهم شراً، كما أنها ملاجئ آمنة عند حدوث هجوم مفاجئ وأنا مع هذه الطريقة التي استخدمت منذ القدم إلا أننا نرى أن "نيقولا فيتللي" يهدم في عصرنا الحالي قلعتين في "سيتا دي كاستللو" لكي يحتفظ بالولاية، كما أن دوق أوربينو "جيدو بالدو" يدمر كافة الحصون في أراضيه التي طرده منها قيصر "بورجيا" لكنه حين عاد إليها وجد أن ضياع بلاده مرة أخرى وهي بدون حصون أصعب مما لو كانت لازالت باقية وعلى هذا فإن فائدة القلاع تتوقف على الفترة الزمنية التي تمر بها وهي إن كانت ذات قيمة جيدة في وقت ما، نجدها مضرة في

وقت آخر وعلى ذلك يمكننا أن نتناول الأمر ذه الطريقة: على الأمير الذي يخشى شعبه أكثر من خشيته للأجانب أن يقيم القلاع، وعلى من يخشى الأجانب أكثر من خشيته لشعبه أن يظل بدو ا إن قلعة ميلانو قد تسببت وسوف تسبب لعائلة "سفورتسا" متاعب تفوق أي اضطراب آخر شهدته هذه الولاية ولهذا فإن أفضل الحصون هو ما يقوم على حب الشعب لأميرهم فإنك إذا ملكت الحصون القوية فهي لن تحميك من شعب يكرهك، إنه سيشهر السلاح في وجهك ولن يكون في حاجة لأجانب يساعدونه ولم نر أي مثل في عصرنا الحاضر لحصون استفاد منها الحاكم فيما عدا الكونتيسة "فورلي" عندما مات زوجها الكونت "جيرولامو" فقد استطاعت بفضل حصنها أن تفر إليه من الشعب، وتنتظر المساعدة من "ميلانو" من ثم تستعيد الولاية وقد كانت الظروف في ذلك الوقت لم تسمح للأجنبي بأن يساعد الشعب وفيما بعد لم تستفد الكونتيسة مما تملك من قلاع أي فائدة، وذلك حين هاجمها قيصر "بورجيا" وكان شعبها يعاديها فتحالف مع الأجنبي وقد كان من الأفضل للكونتيسة أن تكون محبوبة من شعبها بدلاً من أن تملك القلاع والحصون وعلى ذلك فإني أمتدح من يقيم الحصون ويستخدمها استخداماً صحيحاً في وقت مناسب، كما أمتدح من لا يقيمها عندما يكون في إقامتها خطر عليه وألوم كل إنسان يعتمد على القلاع والحصون ويثق ا ولا يهتم كثيراً بكراهية الشعب له.

الفصل الحادي والعشرون

ماذا يفعل الأمير كي ينال الشهرة؟

لا شيء يؤدي إلى احترام الأمير بشدة سوى أعماله العظيمة، والأعمال غـير العادية بصفة عامة وفي عصرنا هذا لدينا مثال وهو "فرديناند" ملك "أرجون"، وملـك "أسبانيا" الحالي ويمكننا أن نسميه أميراً حديث العهد، فقد أصبح أول ملك في العهـد المسيحي، بعد أن كان ملكاً ضعيفاً، وذلك بعدما اكتسب الشهرة وا د وإذا ما تناولنا أعماله كلها فسنجدها كلها أعمالاً عظيمة جداً، وبعضها خارق للعادة فقـد هـاجم غرناطة في بداية عهدهن وكانت هذه الحملة أساساً ده فقد عمل ذلك وهو لا يزال خالي البال، لا يخشى تدخل أحد كما جعل عقول بارونات "كاستيل" تنـشغل ـذه الحملة، فلم يخطر ببالهم تجديد الأوضاع السياسية، ولم ينتبهوا إلى أنه بذلك قـد نـال شهرة وسلطاناً على حسا م كما أنه صان جيشه بأموال الكنيسة والـشعب، ومـن خلال تلك الحرب الطويلة وضع أسساً لقوته العسكرية التي اشتهر ـا فيمـا بعـد بالإضافة إلى استخدامه للشدة الدينية، مما مكنه من أن يقوم بحملات أعظم من الحملة السابقة، فقضى على المغاربة قضاء مبرماً، وطردهم من مملكته، كل ذلك تحت شـعار الدين وهو مثال سياسي نادر، حيث هاجم إفريقيا بنفس الطريقة أيضاً، كما قام بحملته على إيطاليا، وعلى فرنسا فيما بعد وكان يصطنع مشكلات كبيرة ألهت عنه الرعيـة، وجعلتهم مشغولين بصفة دائمة وقد نتجت هذه المشكلات عن بعضها البعض فلم يعط الناس فرصة للاستقرار والعمل ضده.

ويستفيد الأمير أيضاً فائدة كبرى عندما تكون له أعمال عظيمـة وبـارزة في الإدارة الداخلية، مثل ما ينسب إلى "برنابو الميلاني" ومن الناحية الدينية يجـب علـى الأمير البحث عن طريقة مناسبة للثواب والعقاب، وهو أمر كثر الحديث عنه، وهمـا

يأتيان عندما يقوم الفرد بعمل فذ سواء كان خيراً أم شراً وعلى الأمير أيضاً أن يسعى في كل الأعمال التي تكسبه شهرة بالعظمة والتميز.

ويحترم الأمير بشدة إذا كان خلصاً في الصداقة أو شديد العداء، وذلك حين يعلن بصراحة تامة تأييده أو عداءه لفرد ما وهي سياسة أكثر نفعا له من أن يبدو محايداً دائماً فإذا بدأ القتال بين دولتين متجاورتين، فقد يخشى انتصار أي منهما، أو لا يخشاه وأياً كانت الحال من الأفضل لك أن تعلن موقفك بوضوح، وتلعن الحرب فإذا لم يتضح موقفك، فإنك ستقع فريسة للمنتصر في الحالة الأولى وهذا يرضي الدولة المنتصرة ويقنعها ولن تستطيع تبرير موقفك أن الدفاع عن نفسك، ولن يقبل أحد مقابلتك فكل منتصر لا يريد أصدقاء مشكوك في أمره، لم يمدوا إليه يد المساعدة وقت الشدة كما أن المقهور لن يقابلك أيضاً لأنك لم تستل سلاحك وتخاطر بنفسك من أجل قضيته.

لقد أرسل الأيتوليون "أنتيوكس" إلى بلاد الإغريق لطرد الرومانيين منها، كما أرسلوا الخطباء إلى الآخيين لاذين كانوا أصدقاء الرومانيين لتشجيعهم على البقاء على الحياد ومن ناحية أخرى، طلب منهم الرومانيون أن يحملوا السلاح ويعاونوهم وعرض الأمر على مجلس الآخيين للبحث، وسعى سفير "أنتيوكس"، ورد السفير الروماني على ذلك بقوله: "إن ما يقال عنه خير لدولتكم وذو فائدة لها، هو أبعد شيء عن الحقيقة، لأنكم إن لم تتدخلوا في الحرب ستصبحون فريسة للمنتصر فيها، ولن يذكر لكم أي فضل أو تنالوا أي ذكر".

وفي أغلب الأحوال يطلب منك صديقك أن تفصح عن موقفك وتشهر السلاح، أما من هو ليس صديقاً لك فسيطلب منك البقاء على الحياد والأمراء ضعاف الهمة عادة ما يفضلون الحياد تحاشياً للأخطار، وهي طريقة غالباً ما تدمرهم لكن الأمير حين يعلن عن موقفه صراحة ويؤيد أحد الطرفين فإنه إذا انتصر من انضممت إليه، فسيظل يدين لك بالمعروف حتى لو كان قوياً وبقيت أنت تحت سلطانه، وستستمر

الصداقة بينكما بعد أن بدأت ولن تصل خيانة الرجال بأي حال من الأحـوال إلى أن يبطشوا بك وأنت من أحسنت إليهم في يوم من الأيام بالإضافة إلى أنه يندر أن يـتم النصر بصورة تجعل المنتصر يتحلل من كل أعمال الخير، وخاصة العدل أما إذا هـزم حليفك فيمكنك الاعتماد عليه وسيساعدك مادام قادراً على ذلك وتشتركان في قدر واحد قد يصعد نجمه من جديد أما في الحالة الثانية التي يخشى فيها أي من المتحـاربين من أي ناحية، بل من الأفضل بالنسبة لك أن تناصر أحدهما، فأنت تسعى إلى تـدمير واحد منهم بمساعدة من كان ينبغي له أن ينقه لو كان عاقلاً، فـإن انتـصر -وهـذا مضمون بمساعدتك له- فإنه يظل طوع أمرك.

وهنا يتحتم علينا أن نلحظ أن من واجب الأمير أن يحذر التحالف مع من هـو أقوى منه حتى يعتدي على غيره، إلا إذا كان مضطراً لذلك كما سبق أن أوضـحنا، لأنه إذا ظفر هذا الحليف بالنصر، فستظل أنت تحت سلطانه ومن واجب الأمـراء أن يتجنبوا أن يكونوا تحت إمرة وإرادة غيرهم قدر المستطاع لقد اتحد البنادقة مـع دوق ميلانوا رغم أنه كان باستطاعتهم تجنب هذا التحالف الذي أدى إلى تدميرهم ولكن إذا لم يستطع الأمير تجنب ذلك مثلما حدث في حالة الفلورنسيين عنـدما ذهـب البابـا وأسبانيا بجيوشهما للهجوم على "لمبارديا"، وينبغي للأمير حينئـذ أن يتحـالف مـع الآخرين للأسباب السابق ذكرها ولا يجب أن يدع الحكومة تعتقد أ ا قـادرة علـى السير بسياسة واحدة صحيحة، ولكن من الأجدر بنـا أن نجعلـها تعتقـد أن كـل السياسات مشكوك فيها وهذا الأمر من طبيعة كل شيء فالإنسان عندما يحاول تجنب صعوبة ما دون الاصطدام بغيرها، ومن الحكمة أن نكون قادرين على معرفـة طبيعـة الصعاب التي تواجهنا وتحديد أقلها ضرراً.

وعلى الأمير أيضاً أن يكرم الموهوبين ويميز القادرين، ويحمي البارزين في كـل فن، بالإضافة إلى أنه من واجبه أن يحث مواطنيه على ممارسة العمل وهم مطمئنو البال، سواء كان هذا العمل تجارة أو زراعة أو صناعة يعمل ا الناس وذلك حتى لا يحجـم

الناس عن الإبداع فيما يفعلون خوفاً من المصادرة، أو أن يحجم البعض الآخر عن بدء صناعة خوفاً من الضرائب، وينبغي مكافأة كل من يقوم بهذه الأعمال، وكذلك كل من يسعى لتحسين أحوال المدينة، أو الولاية بأي طريقة بالإضافة إلى أنه يجب عليه أن يلهي شعبه بالمهرجانات، والمعارض في المواسم السنوية المختلفة ولما كانت كل مدينة تتألف إما من طوائف عمالية، أو من طبقات اجتماعية، فإنه لا ينبغي للأمير أن يغض بصرة عن كل هذه الطوائف والفئات ويجتمع معهم من وقت لآخر وأن يكون مثالاً أمامهم لعظيم الكرم، والإنسانية دون أن يقلل من مستوى إجلاله واحترامه وألا يسمح بذلك أبداً في أي وقت.

الفصل الثاني والعشرون
حول أمناء الأمراء

إن اختيار أمناء للأمير لا يعتبر أمراً قليل الأهمية، فالأمناء إما صالحون أو غير صالحين، وها يتوقف على حكمة وذكاء الأمير ويمكننا أن نقيم الحاكم وعقله حين نرى من يحيط به من رجال فإذا كانوا قادرين ومخلصين يمكننا دائماً أن نعتبر أن الأمير من الحكماء، حيث استطاع أن يحدد قدرات أمثاله، وأن يحافظ على إخلاصهم له ولكن إذا كانوا غير ذلك يمكننا أن نكون رأياً غير جيد عن الأمير لأنه قد أساء الاختيار.

وما من أحد تعرف على "أنطونيو دافنافرو" كوزير لباندولفو بتروتشي أمير "سيينا" إلا واعتبره رجلاً حكيماً، وذلك لأن أمينه هو أنطونيو وللرجال ثلاثة عقول مختلفة: الأول يفهم الأمور دون أن يحتاج لمساعدة من أحد والثاني يفهمها حين يوضحها له غيره، والثالث لا يفهم الأمور بمفرده ولا حين يشرحها له أحدهم والنوع الأول هو أكثر تميزاً والثاني ممتاز أيضاً، أما الثالث فهو عديم المنفعة، ولذا فإن باندولفو إن لم يكن من النوع الأول، فإن من النوع الثاني على أي حال فالأمير دائماً يستطيع الحكم على أعمال الآخرين سواء كانت خيراً أم شراً حتى وإن كان عقل الأمير غير جيد كما أنه يستطيع التمييز بين الأعمال السيئة والأعمال الصالحة ويصحح الأولى، ويحض على الثانية وإذا كان الأمين الأمين لا يستطيع أن يأمل في خداع الأمير، لذلك فهو يظل صالحاً.

وهناك صفة أخرى يمكن للأمير أن يعرف وزيره وهي طريقة صائبة دائماً فإذا وجدت الوزير فكر في نفسه أكثر مما يفكر فيك، وأنه يبحث عن مصلحته الشخصية في جميع أعماله فإن لن يكون وزيراً صالحاً، ولا يمكنك أن تعتمد عليه فواجب من يمسك بزمام الأمور في ولاية غيره أن يفكر في الأمير فقط، ولا يفكر في نفسه أبداً وألا يهتم بشيء سوى ما يخص الأمير ومن ناحية أخرى ينبغي للأمير أن

يصون وفاء أمينه له، فيفكر في أحواله ويكرمه ويغدق عليه، ويرفع م لته، ويسند إليه الأعمال الكبرى ويستطيع الأمراء وأمناؤهم الاعتماد على بعضهم البعض حتى تستمر هذه العلاقة، أما إذا شاب العلاقة غير ذلك فالنتيجة هي المضرة دائماً سواء لهـذا أو لذاك.

الفصل الثالث والعشرون

كيف يمكن تجنب المتملقين؟

يجب ألا نغفل عن موضوع هام، وهو ذكر خطأ الأمير الذي لا يمكـن تجنبـه بصعوبة، إلا إذا كان على درجة عالية من الحكمة، أو لم يسيء الاختيار، وهو الموضع المتعلق بالمتملقين الذين يمتلئ م كل بلاط فالناس يسعدون بما يخـصهم، ويخـدعون بالتملق، لدرجة أ م لا يستطيعون تجنب هذا الطاعون إلا بصعوبة بالغة وهم يغامرون باحترامهم حين يودون مواجهته، ويصبحون مزدَرين وليس هناك طريقة أخرى أمـام المرء يقي ا نفسه شر التملق سوى أن يدع الناس يدركون أنه يجب أن يسمع منـهم الحقيقة لكنك تفقد احترامهم لك لو سمحت لكل منهم أن يخبرك بالحقيقة ولذلك على الأمير أن يتبع طريقة ثالثة، وهي أن يختار من ينصحونه من حكماء النـاس ويمـنحهم الحرية التامة كي يتحدثوا إليه عما يسألهم عنه من أمور فقط وليس عن أي شيء آخر وعليه أن يسألهم عن كل شيء، ويسمع رأيهم، ثم يتناول الأمر مع نفسه وعلى طريقته الخاصة، وأن يجتمع بنفسه مع مجالسهم، ومع كل منهم على انفراد، حتى يستطيع كل منهم أن يدرك أنه كلما كان ذا رأي حر كان أكثر قبولاً عند الأمير ولا يجب علـى الأمير أن يستمع إلى غير هؤلاء الذين أعدهم لهذا الأمر، وأن يعمل بتأن ويفكر جيداً وأن يكون حازماً فيما يتخذه من قرارات ومن يفعل غير ذلك إما أن يؤدي به التملق على التعجل، أو أنه لا يستقر على رأي أبداً، ونتيجة كل ذلك أنـه يفقـد اعتبـاره وهيبته.

وسوف أضرب مثالاً حديثاً فقد قال القديس "لوقا" مندوب الإمبراطور الحالي عن جلالته وهو يتحدث عنه: "إنه لم يستشر أحداً أبداً، إلا أنه لم يفعل أي شيء بنـاءً على رغبته" وهذا يعني أن أتباعه يفعلون عكس ما تم ذكره ولما كان الإمبراطور رجلاً كتوماً لا يحكي لأحد ما يريد حين ينفذه ويتكشف للجميع، فيخرج الإمبراطور قليلاً

عن هدفه ومن هنا يكون ما يفعله اليوم لا يفعله غداً ولا يعرف أي أحد ما يريـد أن يفعله الإمبراطور ولا ما يقصده وبالتالي لا يستطيع أحد الاعتماد على قراراته.

ولكل هذا ينبغي للأمير أن يستشير دائماً عندما يكون هـو فقـط في حاجـة للاستشارة وليس عندما يريد غيره وينبغي أن يكون الأمير سائلاً محنكاً، ومستمعاً متأنياً لما يسأل عنه، وأن يغضب ممن يحجم عن ذكر الحقيقة المجردة وكما هي تمامـاً وهـو يحدثه ويخطئ من يظن أن الأمير الحكيم حكيم بسبب طبيعته الشخصية فقـط، لكـن ذلك يرجع أيضاً للمستشارين المحيطين به والقاعدة الثابتة تقول: إن نصيحة المسداة إلى الأمير غير الحكيم لن تجدي، إلا إذا كان هذا الأمير غير الحكيم قد تخلى عـن ذاتـه وسلم نفسه لرجل يسيطر عليه تماماً في كل الأمور، وكان هذا الرجل ذا حكمة جيدة، وفي هذه الحالة سيكون حكمه صالحاً لكن هذا الأمر لا يطـول، لأن هـذا الحـاكم سيجرده من الولاية وإذا أخذ الأمير غير الحكيم المشورة من عدد كبير من الناس، فإنه لن يستطيع التوفيق بين آرائهم المختلفة أو الاختيار منها لأنه غير حكـيم، وسـوف يفكرون جميعاً في مصالحهم الخاصة، ويعجز هو عن تقويمهم وفهمهـم، ولا يمكـن أن يحدث غير ذلك لأن الناس يقولون لك الصدق إذا اضطروا لذلك ولهـذا يجـب أن تكون النتيجة التي نصل إليها هي: تعود النصائح الحكيمة لأي ناصح كان إلى حكمـة الأمير، ولا تعزى حكمة الأمير إلى ما يتلقاه من نصائح صالحة.

الفصل الرابع والعشرون

لماذا أضاع أمراء إيطاليا ولاياتهم؟

إن مراعاة ما سبق لأن ذكرناه من أمور بحكمة يجعل الأمير الجديد يبدو وكأنه قديم في الحكم، كما أنه يصبح فوراً أكثر ثباتاً في الولاية وأكثر سلامة كما لـو كـان أميراً منذ سنوات عديدة والناس يتابعون أعمال الأمير الجديد أكثـر مـن متابعتـهم لأعمال الأمير الذي ورث الإمارة، وحين نعتبر هذه الأعمال أعمالاً فاضلة، يرتبط به الناس ارتباطاً أوثق مما لو كان أميراً قديماً لأن ما يحدث حالياً يجذب اهتمام الناس أكثر مما حدث في الماضي، وحين تكون حالتهم الراهنة جيدة يرضون ا ولا يبحثون عـن غيرها ولكن وعلى العكس من ذلك تماماً، فهم سوف يبذلون كـل مـا في وسـعهم للدفاع عن الأمير وهكذا يتضاعف مجد الأمير: فقد أرسى عهداً جديداً وهـذا مجـد يحسب له، وا د الآخر يتمثل في إقامته للولاية على القوانين الصالحة والأسلحة الجيدة والأصدقاء الصالحين والقدوة الصالحة بينما يتضاعف عار الأمير الذي يولـد أمـيراً ويفقد عرشه بسبب افتقاره إلى الحكمة.

وإذا تناولنا من فقدوا عرشهم في عصرنا بإمعان، مثـل ملـك نـابولي ودوق ميلانوا وغيرهما، فإننا سنجد نقصاً في أسلحتهم بصفة عامة لأسباب سبق أن ناقشناها بالتفصيل، وأن بعضهم يعاديه شعبه وإذا لم يكن الأمر كذلك فقد يكونون على غـير ثقة من النبلاء، فهذه هي الأسباب التي تضيع الولايـات ذات الجيـوش إن فيليـب المقدوني (ليس فيليب أبو الإسكندر الأكبر) بل إنه هو من هزم علـى يـد "تيتـوس كونتيوس" لم يكن له دولة عظيمة يمكن مقارنتها بعظمة روما وبلاد الإغريق التي شنت عليه هجوماً قوياً، وكلنه كان رجل حرب يعرف كيف يحصل على مساندة الـشعب، وكيف يأمن عِلّيه قومه، فاستطاع أن يستمر في الحرب ضد الأعداء سـنوات طويلـة

وإذا كان قد فقد سيطرته على بعض المدن في النهاية إلا أنه ظل قادراً على الاحتفـاظ بالمملكة.

ولذلك على الأمراء الذين يسيطروا على ممالكهم لسنوات طويلة ألا يتـهموا الحظ كسبب لفقدانهم لها، ومن الأجدر بهم أن يتهموا إهمالهم، لأنهم لم يحسبوا حـساباً للاضطرابات التي قد تحدث بعد الفترات الهادئة (شأنهم في ذلك شأن حافة البشر الذين لا يتوقعون العواصف عندما يكون الطقس معتدلاً) وحين تتغير الأحوال فوراً بدلاً من الدفاع عن أنفسهم وكانوا يأملون أن يستدعيهم الشعب حينما يستاء مـن غطرسـة المعتدين وهذه طريقة جيدة إن لم يكن أمامهم سواها ولكن من السيئ جـداً إهمـال الطرق الأخرى من أجل استخدام هذه الطريقة، فما من عاقل يرغب في السقوط وهو يعتقد أنه قد يجد من يأخذ بيده، وهو أمر قد يحدث وقد لا يحدث، وإذا حدث ذلـك هذا الأمر فلا تكن مطمئناً، لأنك لم تعتمد على نفسك ولكن ساعدك الآخرون كمـا يساعدون الجبناء إن طرق الدفاع الصالحة الوحيدة والأكيدة والدائمة هي تلك الطرق التي تعتمد عليك وحدك وعلى قدراتك وليس على الآخرين.

الفصل الخامس والعشرون

دور الحظ في العلاقات البشرية وكيف يمكن التصدي له؟

أعرف أن العديد من الكتاب يرى أن الحظ يسيطر على أحداث هذا العـالم، وأن البشر ليس باستطاعته أن يغيرها أياً كانت، ولذلك فإن كثرة التعب في الحياة غير مفيدة لنذر الصدفة تحكم الأمور وهذا الرأي يجد تأييداً كبيراً في أيامنا هذه بسبب مـا يحدث من تغييرات كبيرة وأحداث إنسانية لكني حين أفكر فيهـا أميـل أحيانـاً إلى الانضمام إلى هذا الرأي إلى حد ما لكن، وحتى لا نقضي على إرادتنا قضاءً تاماً، أرى أنه من الأصوب أن نعتبر أن الحظ يحكم نصف أعمالنا، ويترك لنا النصف الآخر تقريباً وإني أشبه الحظ بالنهر الهائج القوي سريع التيار، الذي يفيض على السهول، ويقتلـع الشجر، ويهدم المباني، وينقل التربة من شاطئ لأخر، يفر الناس أمامـه، ويستـسلم الجميع لهياجه، ولا يقوون على الوقوف أمامه ومع ذلك ورغم طبيعته هذه فإن الناس يظنون قادرين على مواجهته والاحتراس منه، فهم يبنون السدود والجسور حين يكون هادئاً، فإذا ما هاج يجري في قناة أو تقل خطورته واندفاعه وبالمثل نجد أن الحظ تظهـر قوته فقط إذا لم تكن هناك تدابير متخذة ضده فيوجه نفسه إلى حيث لا توجد تـدابير ضده أو موانع تعوقه وإذا ما نظرنا إلى إيطاليا التي كانت مسرحاً لهـذه التغـييرات، وكانت سبباً فيها، فسنجدها بلداً بلا أي حواجز أو جسور من أي نوع ولو أ ا محمية بطريقة صحيحة مثل ألمانيا وأسبانيا وفرنسا، لما استطاع فيضان أن يؤثر فيهـا بـشدة هكذا، وربما لم يكن ليحدث أصلاً.

وهذا كاف للتصدي للحظ بصفة عامة ولكني حين أقتصر على حالات خاصة فإني أشير إلى مثال يحدث وهو أن المرء قد يرى أميراً يأتيه الحظ اليوم، ثم يحطمه غـداً، والأمير على حاله لم يتغير أخلاقه أو غيرها وأول أسباب بذلك هو أن الأمـير الـذي يعتمد تماماً على الحظ يهلك إذا تغير حظه وأعتقد أيضاً أن السعيد هو من تتفق أعملاه

مع متطلبات العصر، وفي المقابل فإن التعيس هو من لا تساير أعماله عصره وذلك لأن المرء يرى الرجال من خلال ما يفعلونه من أجل تحقيق أغراضهم، وبطرق مختلفة فهذا يصل بالحذر، وذلك يصل بالتسرع، وآخر بالعنف، أو بالمكر أو بالصبر، وآخرون يستخدمون عكس هذه الصفات وكل منهم قد يحقق هدفه رغم اختلاف مناهجهم تماماً وقد ترى رجلين حذرين ينجح أحدهما في الوصول إلى ما يريد، ويفشل الآخر، ورجلين آخرين يحققان نفس القدر من النجاح رغم اختلاف طريقتيهما، فهذا متوقع وذلك حذر والسر في هذا التباين يرجع إلى طبيعة العصر واتفاقها مع ما يقومون به من أعمال أم لا وعلى هذا الأمر تتوقف أيضاً التغيرات التي تحدث في مدى الرفاهية فإذا كان الزمان والظروف المعاصرة ملائمين لمن يعمل بحذر فإنه سينجح، ولكن إذا تغير الزمان والظروف فإنه يهلك لأنه لم يغير من طريقة تناوله للأمور ولا يوجد هناك حكيم يستطيع التكيف مع كل الأحوال أياً كانت وذلك إما لفشله في التكيف مع ما لا تمكنه منه طبيعته أو لأنه ينجح فقط إذا اتبع طريقة واحدة ثابتة.

وقد كانت كل أعمال البابا "جوليوس" متسرعة، وكان الوقت والأحوال المحيطة ملائمين، فكان دائماً ما يصل إلى نتيجة طيبة فإذا نظرنا إلى أول حرب قام بها ضد بولونيا وذلك أثناء حياة "جيوفاني بنتيفوجلي" وهي لم تلق ترحيباً لا من البنادقة ولا من ملك أسبانيا، كما أن فرنسا قد أجرت معه حواراً بشأن الحملة ومع ذلك قام بالإعداد للحملة بنفسه لما لديه من استعدادات جيدة وما يتصف به من تعجل ولذلك توقفت أسبانيا والبنادقة وترددوا وكان دافع البنادقة في ذلك هو الخوف بينما كانت أسبانيا ترغب في استعادة جميع مملكة نابولي لكنه أشرك معه ملك فرنسا الذي لاحظ إقدامه فرغب في مصادقته ليكسر شوكة البنادقة، وأدرك في نفس الوقت أن البابا لن يرفض مساعدته له بقواته لأن في ذلك إهانة شديدة وهكذا تمكن "جوليوس الثاني" بتعجله ما لم يكن باستطاعة أي بابا آخر أن ينجزه مهما أوتي من حكمة لأنه لو انتظر حتى تتم كل الترتيبات وبعد كل شيء قبل أن يغادر روما لما نجح أبداً حيث أنه من

المحتمل أن يجد ملك فرنسا ألف عذر، وأن يوحي إليه الآخرون بألف من المخاوف وإني أكتفي بعمله هذا دون بقية أعماله الأخرى، وجميعها من هذا النوع وكلها نجح نجاحاً كبيراً فهو لم يجرب الفشل وحياته كانت قصيرة وربما كان قد هلك لو أنه واجه ظروفاً كان من الضروري له فيها أن يعمل بحذر وتأن.

والخلاصة هي أنه: إن تغير الحظ وبقي البشر على طرقتهم الثابتة فإنهم يحققون نجاحاً طالما تلاءمت هذه الطرق مع الظروف المحيطة بهم لكن عندما تتعارض الطرق مع الظروف المحيطة فإنهم لا يحققون نجاحاً وإني أرى أن الإقدام أفضل من الحذر، فالحظ امرأة لن تظفر بها إلا بالقوة ومن الممكن أن نلاحظ أن الحظ يستسلم للشجاع أكثر من أولئك الذين يعملون بروية ولهذا فالحظ كالمرأة يصادق الشباب دائماً، لأنهم أكثر عنفاً وأقل حذراً، ولذلك فهم يسيطرون عليه بجرأة تفوق جرأة الآخرين.

الفصل السادس والعشرون

دعوة إلى تحرير إيطاليا من البرابرة

ولآن فإني قد تناولت كل الأمور التي تحدثت عنها وتأملتها في داخلي، وقلت في نفسي هل الوقت الحاضر ملائم لظهور أمير جديد في إيطاليا، وإن كانت الأوضاع غير مناسبة لذلك لكني أرى أن الأحوال تتلاقى وتتشابك حتى يستفيد منها حاكم جديد يقوم بهذا العمل المجيد ولا أجد أن هناك وقتاً أنسب من الوقت الحاضر وإذا كان من الضروري أن يكون بنو إسرائيل عبيداً في مصر حتى تظهر لنا قدرات موسى -عليه السلام- إذن لابد أيضاً لإيطاليا أن تصل إلى وضع أحط من عبودية بني إسرائيل، وأن يبطش بها أكثر مما حدث مع الفرس، وأن يتفرق شملها وتصبح بلا حاكم وبلا نظام ومهزومة ومنهوبة وممزقة الأشلاء ومغلوبة على أمرها بعدما مرت بكل أنواع الدمار.

إلا أن هناك بارقة أمل في فرد محدد قد يهيئه الله لخلاص البلاد، إلا أن حظه قد تعثر وهو في قمة مهمته، وأصبحت إيطاليا الآن بعد أن فارقت الحياة في انتظار من يضمد جراحها ويضع حداً لما يحدث في "لمبارديا" وللسلب والنهب في مملكة "نابولي" و"توسكانيا" ويبرئ إيطاليا من هذه الجروح المتقيحة إن إيطاليا تتضرع إلى الله كي يرسل إليها من يخلصها من قسوة البرابرة وإهاناتهم كما أنها مستعدة للعمل تحت لواء يرفعه أي إنسان ولا أمل لإيطاليا الآن إلا أن يتزعم مقامكم العالي هذا التحرير، فهو عال بنفوذه وطالعه السعيد، ويناصره الله والكنيسة التي يستمد منها سلطانه وهذا الأمر لن يكون شاقاً لو وضعت نصب عينيك ما ذكرته من أعمال الرجال وقصص حياتهم، وإن كان هؤلاء الرجال فرادى وقلة نادرة، إلا أنهم بشر مثلنا على أي حال، والفرصة التي أتيحت لكل منهم كانت أقل من الفرصة الحالية، فأعمالهم لم تكن أكثر عدلاً من هذا العمل العظيم أو أشد سهولة منه، كما أن الله في عونك لأن قضيتك

عادلة إضافة إلى أن هناك معجزات كثيرة قد حدثت من قبل في مثل هذه القضايا التي تدافع عن العدل مثل انشقاق البحر، والغمامة، وتفجير الماء من الصخر، ونزول المـن من السماء والآن تكاثفت كل الظروف لإعلائك، وما عليك إلا أن تكمل ما تبقـى، فالله -سبحانه وتعالى- لا يفعل لنا كل ما نريد حتى تصبح لدينا إرادة حرة وتنجـزه وبذل ننال نصيبنا من ا د.

وليس من العجيب أن أحداً ممن ذكرت من الإيطاليين لم يقم بما نأمل أن يفعله مقامك العالي وإذا كانت القدرات العسكرية قد قضي عليها تماماً في ثورات إيطاليـة كبيرة جداً وفي العمليات العسكرية الكبيرة فإن سبب ذلك هو الأساليب القديمة غير الصالحة، ولا شيء يحقق للرجال ا د الكبير سوى سن القوانين الجديدة، هـي أمـور تجعله موضع إعجاب واحترام ويوجد في إيطاليا ما يسمح بإدخال نظم جديدة ولننظر كيف ان فئة من الإيطاليين قد تفوقت في القتال الفردي والمبارزات، إلا أن جيوشـها كانت ضعيفة، والسبب يعود بالكامل إلى ضعف القادة، فلم يظهر من بينهم حتى الآن من يجعل الاخرين يطيعونه دون تذمر ولذلك كان الفشل هو حليف الجيوش الإيطالية لفترة طويلة من الزمن، وفي كل الحروب التي قامت خلال العشرين عاماً الأخيرة وهذا واضح في كل من "تارو" و"كابو" و"وجنوا" و"فايلا" و"بولونيا" و"مستري".

ولهذا إذا أراد سموكم أن يقتفي آثار العظماء من القادة الذين حرروا أوطا م، فلابد لك أولاً أن تعد نفسك بالأساس الصحيح لما ستقوم به، وهو قواتك الوطنيـة، فلن تجد جنوداً يخلصون لك أكثر منهم، ولن تجد أفضل منهم وإذا كانت الجيوش جميعاً جيدة وهي فرادى، فإ ا ستكون أجود إذا اتحدت تحت قيادة أمير يكرمها وتنال رضاه ولهذا فمن الضروري أن تكون هذه القوات التي تدافع عن الوطن من الإيطاليين وعلى الرغم من أن المشاة السويسريين والأسبان أقوياء جداً إلا أن لكـل منـهما عيو ـا، ويمكننا أن نتصدى لهما بتنظيم عسكري مختلف، ولابد من أن نكون على يقـين مـن النصر عليهما، فالأسبان لا يستطيعون الصمود أمام هجوم الفرسان، والسويـسريين

لابد أن يخافوا ملاقاة مشاة أقوياء مثلهم وأمامنا أمثلة كثرة منها موقعة "رافنا" حيث هاجم مشاة الأسبان على الكتائب الألمانية المنظمة بنفس طريقة تنظيم السويسريين إلا أن الأسبان بخفتهم، وباستخدام ما لديهم من تروس قد تمكنوا من اختراق الصفوف، وأن يحصنوا أنفسهم في مواقع يهاجمون منها هجوماً موفقاً، ولولا إغارة الفرسان عليهم لتمكنوا من القضاء على الجميع بالكامل وإذا عرفنا عيوب هذين النوعين من المشاة فإننا سنتمكن من تشكيل نوع ثالث قادر على مقاومة الفرسان، ولا يخشى المشاة، وهذا يتم باختيار الأسلحة والتنظيم الجيد وهي الأمور التي تمنح الأمير الجيد سمعة طيبة ينال بها العظمة حين يطبقها لأول مرة.

لهذا لا يجب أن تفوت هذه الفرصة دون اقتناص، حتى تجد إيطاليا من يحررها أخيراً وأنا لا أستطيع أن أعبر عن الحب الذي سيقابل به من يحرر كل هذه الولايات التي ذاقت الأمرين بسبب الغزو الأجنبي، وعن المتعطشين للثأر وما سيلاقيه المحرر من ولاء ثابت، وعقيدة قوية، ودموع الشكر والعرفان بالجميل فأي باب يمكن أن يغلق في وجه هذا المحرر؟ ومن ذا الذي يرفض أن يطيعه؟ وأين الإيطالي الذي لا يقبل يسانده؟ إن رائحة السيطرة الأجنبية تزكم كل الأنوف، فهل لمقامكم العالي أن يؤدي هذا الواجب بشجاعة وأمل كبير في هذه القضية العادلة، حتى ينهض وطن آباءنا وأجدادنا تحت راية الوطن ويصدق في ذلك الحين تماماً قول الشاعر بترارك:

استثار الغضب حمية الأبطال
فحملوا السلاح وسعوا للنضال
جمعت أرض الأجداد أيادي الرجال
فبلادنا نابضة ولن نكف عن القتال

فهرس الكتاب

والختام نسأل المولى – عز وجل – الاستفادة

ولا تنسونا من خالص دعائكم

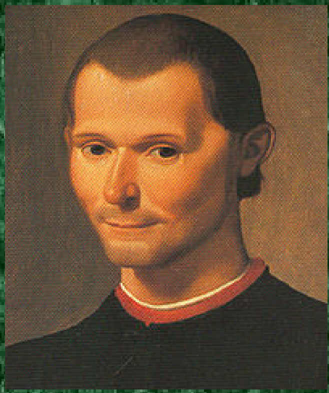
أ. علي محمد المسلمي

ولتوجيه الملاحظات

الرجاء إرسالها على :

البريد الالكتروني

ali_hantool@hotmail.com



كتب غيرت مجرى العالم

كتاب الأمير لمكيافيللي

يعد كتاب "الأمير" لمؤلفة "مكيافيللي" من الكتب التي أثارت ضجة كبيرة في عالم السياسة. وقد اختلفت الآراء حوله. وإن كان رأي الغالبية لا ينصفه نظراً لما فيه من سلوكيات بغيضة بعيدة كل البعد عن القيم والأخلاقيات.

وقد أصبحت شخصية مكيافيللي دائماً مثالاً للخسة والنذالة لما يبثه في عقول الناس من أفكار مسمومة، ولم لا؛ وهو صاحب المبدأ الحقير "الغاية تبرر الوسيلة" الذي يدعو إلى أن يرمي الإنسان بأخلاقه ومبادئه وراء ظهره حتى يفسح الطريق للوصول إلى أهدافه الدنيئة المنبثقة عن الأنانية وحب السيطرة والتملك واغتصاب حقوق الغير.

وإذا كانت هذه هي حقيقة الكتاب فإنه لشيء مروع أن يكون هذا الكتاب ميثاق عمل ومنهج معاملات لكثير من القادة والسياسيين. ومن بينهم لينين وستالين وهتلر وغيرهم.

وبالرغم من أن الكتاب يضم كثيراً من عوامل هدم المبادئ والمثل إلا أنه من بين صفحاته تخرج بعض التحليلات القوية لكيفية اختيار القائد لمساعديه ورجاله. وأيضاً كيفية خوض المعارك والتخطيط لها.

ونحن لنقدم لكم هذا الكتاب لا من أجل العمل به والانتفاع بما جاء فيه ولكن من أجل إلقاء الضوء على بعض الأفكار التي اقتنع بتا كثير من السياسيين وطبقوها في حكوماتهم. ولكي ينقي القارئ خلفياته الثقافية ويدرك أنه يمكن أن تصلنا من الثقافات المختلفة معاول هدم كثيرة للقيم والأخلاق ومن ثم فإنه دعوة للحذر والحيطة تجاه ما نقرأه أو يقدم لنا على مائدة الثقافة العربية. وسوف يجد القارئ أن نظريات هذا الكتاب التي هوجمت هجوماً عنيفاً مطبقة للأسف في بعض المجتمعات الحالية ولا عزاء للإخلاص والمبادئ.

الناشر